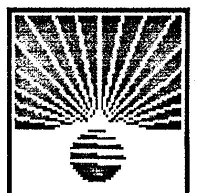
أنور الجندي



مع مطالع القرن الخامس عشر الهجري
موسوعة التأصيل الإسلامي
الفكر المعاصر والخروج من التبعية

من سقوط الخلافة إلى مولد الصحوة

بيت الحكمة
للإعلان والنشر والتوزيع



وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ

رقم الإيداع ٩٣٦٣ لسنة ١٩٩٠

تحية لهذا الرجل

● تحية احترام وتقدير إلى الأستاذ المفكر المخضرم الصعيدى [1] المجاهد « أنور الجندى » على ما أعطى وعلى ما بذل من جهود بحثية ، ميدانية ودراسية وتطبيقية فى مواجهة خصوم الإسلام وأعداء المسلمين منذ أن وعى شباب الصحوة الإسلامية دورهم الجهادى فى الدفاع عن أمتهم وحماية رسالتهم ، والدعوة إلى الله نصرة لعقيدتهم ، والولاء لله بإخلاص ، والبراء من كل باطل بإصرار وثبات ، تلبية لنداء الخلافة الإسلامية الغائبةعن الديار ..

● لقد عمل أنور الجندى فى ساحة القلم والقرطاس منذ عام ١٩٤٠ ، ولذا فهو من أوائل الصحافيين الذين نطلق عليهم لقب « الإسلاميين » فى مجال الإعلام والنشر ، فقد عمل بالصحافة العامة ، ثم بالصحافة الإسلامية المتخصصة منذ هذا التاريخ البعيد حتى اليوم ، متجولاً بين مجلات وصحف الأمة العربية الإسلامية بلا استثناء تقريباً .

وأصدر الأستاذ الجندى عشرات المؤلفات التى شكلت فى ذاتها اتجاها فكرياً وصحافياً متميزاً سدّ ثغرة واسعة فى المكتبة العربية والإسلامية كان صعباً أن تُسد لو لم يشأ الله لأنور الجندى أن يسدّها .

● لقد خاطب الأستاذ أنور الجندى جيلاً بعينه ، فى زمن خاص ، متناولاً قضايا بذاتها ، وارتبطت العناصر الثلاثة ببعضها البعض فى انسجام ربانى نادر الحدوث ، فما كان لأحدها أن ينفك عن الآخر ، أو يمكن أن يدوم بغيره حسبما شاء الله ..

وفى كل ما بذل من جهود ، كان واضحاً ، ومتميزاً ، بقضاياه التى

---

(١) ولد الأستاذ أنور الجندى بمدينة ديروط / محافظة أسيوط - عام ١٩١٧ .

ويتناولها ، والتى انصبّت فى أغلبها إن لم يكن فيها كلها ، فى عدة محاور فكرية جريئة وغريبة على الحس الثقافى (المستحدث) والإجتماعى (المشوش) والسياسى (المتآمر) ، والاجتماعى (المترهل) ، لينفذ من خلالها إلى الغاية العليا التى نسعى إليها جميعاً ، وهى أن نعرف أعدائنا ، ونعرّى المتحدثين بلغتنا (المتآمرين علينا ، ونحدد أولويات الخصومة معهم ، ومستوى العلاقات بين مختلف كياناتنا ومذ هبياتنا ، فى إطار عام وشامل يندرج تحت عنوان جامع : « الفكر المعاصر والخروج من التبعية » .

● وقد يرى البعض أن الأستاذ أنور الجندى قد تناول هذه الموضوعات بعينها من قبل ، أو أنه عالج الكثير من جوانبها المختلفة على مدى نصف قرن من الزمان ..

وبالضرورة لابد أن ألتقى مع هذا الطرح فى ساحة واحدة وأسلِّم به كل التسـليم ، لكن الذى أزعمه فى آخر عمل للمفكر الإسلامى أنور الجندي ، والذى ينفرد بيت الحكمة بإصداره ووضعه بين يديك الآن فى هذا الثوب القـشيب الـراقـى ، إنـما هـو حسـبما تصورناه ، خلاصة جهاد النصف قرن كله .

● فالذى بين يديك الآن عزيزى القارىء لا يمكن أن يكون شيئاً تم تقديمه من « قبل » ، لأنه أعد ليكون منهاجاً لما هو « بعد » .. فهذا هو الجزء الأول من موسوعة فكرية سياسية مُبَسطة تضع كل النقاط ، على كل الحروف ، جملة واحدة ، من وجهة نظر إسلامية شاملة ، اعتادت غربلة الفكر المشبوه ، واحترفت فضح الفاسد الخفى فيما اصطلحوا عليه بالآداب والحضارة والفنون .

الناشر

أبو إسلام أحمد عبد الله

مدخل إلى البحث

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

ماتزال معركتنا الرئيسية والكبرى ، مع تحرير القيم وتصحيح المفاهيم في مواجهة الحملة الضخمة التي تزداد اتساعاً ، وتشمل القوى التغريبية والإلحادية والباطنية والإباحية في مخططها الموزع بين الغرب والماركسية والصهيونية جميعاً ، ومن وراء ذلك ، قوى أخرى تعتمد على الطائفية والعنصرية والنحل المفارقة كالبهائية والقاديانية .

هذه الحملة بدأت منذ الحروب الصليبية ومازالت تعمل من خلال مؤسسات مختلفة أهمها التبشير والاستشراق ، وتشمل ميادين الصحافة والمدرسة والمسرح والفن والمحكمة ، حيث تحجب المقومات الإسلامية الأساسية للأمة وتبرز عوامل السيطرة على التعليم والمصرف والقضاء ، وتتصارع من خلال أيدلوجيات الليبرالية والشيوعية ، على احتواء الأمة الإسلامية بعاملي الثقافة والاقتصاد تحت أسماء الانفتاح والتبادل والامتزاج ..... الخ .

وكلها محاولات مضللة ترمي إلى أن تفقد الأمة الإسلامية قيمتها الأساسية وأصالتها وأن تنصهر في مشروع طويل المدى في الحضارة الغربية المنهارة الغاربة .

وهي المحاولة المستمرة تحت أسماء مختلفة ، ومحاولات متعددة ، والتي مازالت الأمة الإسلامية تواجهها في ثبات وصمود ويقين – إيماناً بأن هناك حضارتين ومنهجين مختلفين – ولن يقبل المسلمون بانصارهم في المشروع العربي (الذي هو بمثابة منهج يوناني روماني مسيحي) سواء أكان ليبرالياً أم ماركسياً ، فهو يستمد من نفس القيم ويختلف تماماً مع الإسلام الذي جاء ليقيم منهج الله – تبارك وتعالى – ، القائم

على التوحيد الخالص والعدل والرحمة والإحكام والإخاء البشري ، والمختلف تماماً مع الوثنية والإباحية والتميز الطبقي والعنصري واللوني ، والمتعارض مع الاستعلاء بالقوة واستعباد الشعوب ونهب ثرواتها والعمل على إزالتها .

ولقد كانت مهمة الفكر الإسلامي في خلال القرن الرابع عشر الهجري هي تصحيح المفاهيم وتحرير القيم ، وكشف زيف معطيات التعريب والغزو الثقافي ، والرد على كل مايوجه للإسلام (عقيدته ونبيّه وتاريخه ولغته) من اتهامات وشبهات ، والدخول في معارك واسعة ضخمة مع كبار التغريبيين الأول : **رينان وكرومر ودنلوب وزويمر وهنري لامنس ولويس شيحو وويلكوكس وفنسنك وجولد سيهر ، ومرجليوث .**

ومن تابعهم من قومنا : طه حسين وسلامه موسى وعلى عبدالرازق وحسين فوزي وزكي نجيب محمود ولويس عوض .

وقد اتسعت هذه المهمة في العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر ، وأوائل الخامس عشر فأصبحت المهمة تدخل في نطاق إقامة مناهج لبناء الفكر الإسلامي من جديد فظهرت عملية (إسلامية المعرفة والعلوم والمناهج والمصطلحات) على نطاق واسع وظهر علم الاجتماع الإسلامي وعلم النفس الإسلامي ، وإسلامية الأدب ، وأصبح هناك مايسمى بالبدائل الإسلامية .

ثم كانت الخطوة الثالثة في أوائل العقد الثاني من القرن الخامس عشر وهي : **التأصيل الإسلامي للفكر المعاصر والخروج من التبعية .** فكان هذا العمل الذي بين يدي القارئ الكريم .

فلقد كان من الضروري أن نواجه السيل المنهمر من الحملات على الإسلام (كتابة دينه وتاريخه ولغته) والكشف عن وجه الحق في كل مايطرح في الساحة سواء من المستشرقين والمبشرين أنفسهم (وإن كانوا قد تراجعوا قليلاً عن المسرح) بعد أن أطلقوا أتباعهم من الذين يكتبون بالعربية وهم مع الأسف أشد قسوة وعنفاً في مواجهة الإسلام ، بعد أن تشكلوا في خلايا الشيوعية وفي محافل الماسونية وفي معاهد الغرب والشرق جميعاً .

ولقد كان لانكسار الشيوعية في هذه المرحلة أثرها القوي الذي لم يظهر بوضوح بعد ، والذي سوف يدمر الفكر الغربي بشقيه ، فقد كانت الماركسية إحدى مخططات الغزوة الصهيونية التي ظنت أنها قادرة على احتواء الفكر الإسلامي بعد أن احتوت الفكر المسيحي والغربي على السواء .

كما تكشفت في العقود الأخيرة حقائق كثيرة لابد من الانتفاع بها في دحض مقولات باطلة لاتقوم على أصول أصيلة سواء من الفطرة أو العلم ، وإنما هي تقوم أساساً على الخداع والتغرير والمغالطة وضرب النصوص بعضها ببعض وانتقاص الأسانيد واللعب بالألفاظ والخداع .

وقد أصبح القارئ المسلم اليوم واعياً لكل هذه المخططات ، واثقاً من أن هناك مؤامرة تدبر لاجتياحه بعد احتوائه ، ولذلك فهو لايستسلم أبداً ولايعتمد في مقاومته إلا على المنهج الرباني الذي أعطاه الأسلوب الأمثل للمقاومة

﴿ يأأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ .

فالواضح اليوم أن قوى الغرب تتجمّع وتتكتل لمواجهة الصحوة الإسلامية حيث تتلاقى على الخصومة مع اختلاف الوسائل ، والمطامع ، وتحاول أن تفرض مفهوماً زائفاً للإسلام تحت عناوين خادعة :

المرونة والعصرية والتجديد والتطوير

والمسلمون يعرفون حدود المرونة والتطوير ويقفون في قوة أمام « **الثوابت الإسلامية** » لايتجاوزونها ولايقبلون تجاوزها ، ولكنهم غاية في المرونة في « **المتغيرات** » التي يسميها رجال الفقه « **الفروع** » ، وهم في نفس الوقت يؤكدون الضوابط والحدود التي أقامها الإسلام من أجل سلامة البناء نفسه ، والمسلمون سوف لايُخدعون في هذا مهما ترددت الدعوات التي تتحدث عن (**التيار الإسلامي المستنير**) وهم لاتزعجهم تلك العبارات المهدِّدة بأن يفوتهم الزمن مع تقدم الحضارة أو أن تمسكهم بدينهم يحول بينهم وبين التقدم وامتلاك غايات العلم والتكنولوجيا حين يضرب لهم المثل من اليابان وكوريا وغيرها ولذلك إجابة يسيرة واضحة :

نحن نعرف أن الغرب لن يعطي المسلمين مفاتيح القوة ولاأسرار التكنولوجيا ولن يسمح لهم بإقامة الصناعات الكبرى أو السوق الإسلامية المشتركة أو الجيش الإسلامي الموحد مهما أعطى ذلك لكل أمم الأرض من غير المسلمين وتلك مخوفة قديمة في أعماق النفس الغربية سواء أكانت خوفاً أم حقداً ، ولكن الله تبارك وتعالى غالب على أمره وللمسلمين مفهومهم للحضارة ولتوزيع الثروة فهم لايقبلون الانصهار في هذا النظام الذي يطالب الغربيون أنفسهم بتغييره بعد أن ظهرت أخطاؤه وهم يقدمون للبشرية نظاماً ربانياً لايقوم على استعلاء العنصر واللون ، ولا على نهب ثروات الأمم ولا على الظلم الذي يؤدي بالملايين من الفقراء والجوعى إلى

الموت كل عام ، ولا إلى إلقاء فائض الطعام في المحيطات وتربية الكلاب ، وتبديد الثروة العالمية في إطار الاستهلاك والترف الخادع .

لن يقبل الإسلام أن ينضوي تحت لواء هذه الحضارة ولا أن ينصهر في هذه الوضعية التي سبقت إليها فارس والروم فدمرت تدميراً ، وهو نفس مصير هذه الحضارة التي تقترب الآن من نهايتها .

إن للإسلام حضارته التي يستمدها من مفاهيمه الربانية ، ومنهجه الاجتماعي الذي يختلف مع امبراطورية الربا . ومن هنا كانت الدعوة إلى تحرير المفاهيم وتصحيح القيم كمقدمة لبناء مناهج التعبير الصحيح للمجتمع الإنساني في إطار الفطرة والدين الحق وسنن الله تبارك وتعالى في الكون والحياة .

وهذا هو مايدعونا إلى أن ننبه إلى مجموعة من الحقائق :

● **إقامة** مفهوم أهل السنة والجماعة القائم على التوحيد الخالص الجامع بين الربوبية والألوهية والإيمان بالرسالة الخاتمة والرسول الخاتم والقرآن المهيمن على كل الكتب والرسالات ، والسنة المطهرة مرتبطة بالقرآن ، والإيمان بالجهاد ، فريضة الله تبارك وتعالى الماضية إلى يوم القيامة بمعناه الجامع ، وعالمية الرسالة المحمدية والإيمان بالغيب والبعث والجزاء الأخروي والإيمان بالألوهية والنبوة والإيمان بالمسئولية الفردية والالتزام الأخلاقي والإيمان بالترابط الجامع بين الثوابت والمتغيرات والتوازن الجامع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة والإيمان بقدرة الإسلام على العطاء الدائم في كل العصور والبيئات ، والإيمان بقدرة الإسلام على استعادة المسلمين إلى دائرته بعد أن انحرفت بهم الأوضاع .

● **والإيمان** برفض الاستسلام للعنصر الغريب ، وقبول الأصالة والعودة إلى المنابع وقدرة الإسلام على الجمع بين الأصالة والمعاصرة والاستفادة من التاريخ دون تقديسه أو عبادته وتكامل المعرفة الجامعة .

● **والإيمان** بعطاء الإسلام في بناء المنهج التجريبي ومنهج المعرفة الجامع ذي الجناحين وقانون قيام الحضارات والأمم وسقوطها[1] .

● **والإيمان** بالأمة الوسطى التي تحمل لواء الدفاع عن كلمة التوحيد وجندها خير أجناد الأرض ، وهم في رباط إلى يوم القيامة وهي التي تضع العقل في مكانه الصحيح ، مصباح زيته الوحي .

ومن ثم تقف من الاعتزال والكلام والفلسفة والتصوف الفلسفي موقف المعارضة ، فهي تؤمن بتكامل الوحي والعقل وعدم تعارض العقل والنقل وتقديم الوحي عند التعارض ، وهكذا تتحرر القيم وتصحح المفاهيم لتكون الأمة قادرة على فهم موقعها الصحيح فوق هذا الكوكب ودورها الحقيقي الذي هي مكلفة بأدائه في حمل رسالة الله – تبارك وتعالى – إلى العالمين ومن أجل هذا كله :

كان لابد من إعادة الصياغة للفكر الإسلامي في موسوعة جديدة تحمل هذا التصور وتلك الوجهة : **(التأصيل الإسلامي للفكر المعاصر والخروج من التبعية)** مستوعباً الرد على تلك الأسئلة التي وجهت والشبهات التي أثيرت وظهر ذلك كله في بوتقة دراسة جامعة تكون بمثابة تصور متجدد ليكون في أيدي الباحثين ، قوة قادرة على دحض أدوات الشك وبناء الثقة في النفس المسلمة مجددة ، لتكون محصنة ضد

---

(١) تسقط الأمم حين تنحرف عن منهج الله تبارك وتعالى وتصاب بالتحلل والترف .

الانصهار في الفكر الوافد ، وحينئذ تكون قابلة للتحرك إلى الغايات العليا في بناء مجد أمة الإسلام من جديد .

وإذا كنا قد تناولنا هذه القضايا على مدى أكثر من أربعين عاماً في بحوث ودراسات متفرقة ومن خلال التحديات التي كانت تثار وتتتابع يوماً بعد يوم فقد جاء الوقت الذي يجب أن تصفي تلك الشبهات وتدحض في نطاق عمل كامل متكامل يتميز بالأصالة ، ومتابعة كل التحديات وإعادة صياغة الحقائق وغرضها من جديد في تطلع مؤمن بأن نضع في يد الشباب المسلم المثقف المتطلع إلى متابعة الصحوة الإسلامية والانصهار فيها إلى أن تحقق غاياتها فنكون بذلك بفضل الله وعونه قد وضعنا الأيدي على النقاط الحساسة الجديرة بالنظر والحلول الأصيلة القادرة على إضاءة الطريق إلى النهضة وعلى الذين يحملون هذا العبء من بعدنا أن يبنوا على الأساس الذي وضعه إخوة لهم سبقوا على الطريق وحملوا اللواء في أشد أوقات الأزمات والمحن صعوبة وقسوة ، والله ولي التوفيق .

أنور الجندى

الفصل الأول

الإسلام والغرب

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

هناك حقيقة أساسية اعترف بها كثير من مؤرخي الغرب المنصفين وتجاهلها أولئك الذين تملأ نفوسهم أحقاد الخلاف بين الإسلام والغرب بقول القانوني المسيحي الكبير فارس الخوري :

((إن العلماء الغربيين يقسمون التاريخ إلى ثلاثة أدوار :

قديم ومتوسط وحديث ، ويضعون سقوط الدولة الرومانية المقدسة حداً بين العصور القديمة والمتوسطة .

ولست أقول أن سقوط الدولة الرومانية لا يصح اتخاذه حداً فاصلاً بين التاريخ القديم والمتوسط ، فقد كان أثر سقوطها عظيماً ، وإنما هناك حادثة أعظم كان جديراً بعلماء التاريخ اتخاذها حداً فاصلاً لفترتي التاريخ العالمي وأعني بذلك « **ظهور الإسلام** »)) ١ . هـ .

تلك هي الحقيقة التي يجب أن تصدر بها كتب التاريخ المعاصر في بلاد المسلمين حتى يتأكد أبناؤنا والأجيال المتصلة بأن أمتهم وقومهم كان لهم دور عظيم في بناء الحضارة الإنسانية وإن هذا المجد وهذا الدور لم يكن له إلا مصدر واحد هو : **نزول رسالة الإسلام في بيئتهم** .

وإذا كان لنا أن نضيف حقيقة أخرى أساسية في دراسة تاريخ العلاقة بين الإسلام والغرب ، فلقد حرر المسلمون أهل الشام ومصر وإفريقيا من نفوذ الدولة الرومانية الذي امتد ألف عام منذ غزو الإسكندر الأكبر لهذه البلاد ٣٥٣ ق . م .

وقد اشترك أهل البلاد (الشام ومصر وشمال أفريقيا في الترحيب بالعرب الذين جاءوا حاملين راية الإسلام لتخليصهم من ظلم الروم

البيزنطين حيث رأوا في الإسلام محرراً لهم من النفوذ الاستعماري الروماني ، كما أن قبط مصر فتحوا أبوابهم لعمرو بن العاص ورجاله .

ولقد أعاد المسلمون لأهل هذه البلاد الأمن والحماية ولم يفرضوا عليهم دينهم بل تركوهم أحراراً في ظل قاعدة الإسلام القائمة على عملية كل من يستظل بظل راية الإسلام .

غير أن الغرب لم يلبث أن بدأ مع الإسلام معركة مازالت ممتدة إلى اليوم في صور شتى كان أولها الصراع مع الروم ، ثم الحملات الصليبية ، ثم الاتفاق مع التتار لحاصرة الإسلام ، ثم كانت معركة الحملة الاستعمارية الحديثة والمؤامرة الصهيونية .

وخلال ذلك حقق الغرب نتائج خطيرة من خلال أحداث عاصفة هزت الأمة الإسلامية في العصر الحديث في محاولة لعدم تمكينها من امتلاك إرادتها .

١ – فرض النموذج الغربي على البلاد الإسلامية (الاستعمار) .

٢ – عزل السلطان عبد الحميد وإسقاط الخلافة وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية (١٩٢٤) .

٣ – غرس الكيان الإسرائيلى الصهيونى العنصرى في قلب الوطن الإسلامي (١٩٤٨) .

٤ – هزيمة ١٩٦٧ وسقوط القدس .

الحقيقة أنه لا سبيل إلى فهم الأوضاع القائمة في الوطن الإسلامي الكبير اليوم وخاصة في المنطقة العربية دون التعرف إلى الخلفيات التي امتدت خلال العصر الحديث من خلال منظور إسلامي

أصيل وقد أصبح هذا العرض ضرورة ملحة بعد أن طرحت على الساحة مفاهيم كثيرة متعارضة من مصادر متعددة كلها بعيدة عن المنظور الإسلامي الأصيل في الوقت الذي تجد فيه هذه المفاهيم شهرة واسعة وتداولاً كبيراً نتيجة لما يرمي إليه محتضنوها من إذاعتها وعرضها واستمرار بثها حتى تصبح من المسلمات ، خاصة وأن جذورها تتركز في بعض المناهج الدراسية والجامعية بحيث يصبح من العسير تقديم المفاهيم الأصيلة والصحيحة إلا في مجال القراءة الحرة .

والحقيقة أن هناك مفاهيم ماركسية وأخرى علمانية مطروحة في مجال تاريخ الإسلام في العصر الحديث كلها ترمي إلى حجب المفهوم الأصيل والصحيح ، كذلك فإن الصهيونية العالمية تحاول أن تعرض مفهوماً مضللاً يرمي إلى إشاعة روح من التشويه والتسليم بوجودها في قلب الأمة الإسلامية .

وأخطر ما تقدمه هذه القوى هو تفسير تاريخ الإسلام تفسيراً مادياً أو علمانياً بهدف القضاء على مكونات التفسير الإسلامي الجامع بين المادة والروح ، وبين الفردية والجماعية .

ويجب في أول الأمر أن يكون واضحاً أنه منذ أن سيطر الأتراك العثمانيون على الأجزاء الأوربية من البلقان ووصلوا إلى أسوار (فيينا) وأقاموا في أوربا أكثر من أربعمائة عام بدءاً من اقتحام السلطان محمد الخامس للقسطنيطنية والإستيلاء عليها مما أشعل النار في قلب المسيحية الغربية ودفعها إلى هذه المؤامرة الواسعة النطاق التي بدأت بالعمل على تدمير الامبراطورية العثمانية وإسقاط الخلافة الإسلامية ، وهو العمل الذي دأبت أوربا على موالاته حتى تحقق خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ،

والذي حمل معه فكرة التخلص من اليهود بإغرائهم بالسيطرة على فلسطين وإقامة دولة فيها ، ونقل الصراع بين أوربا واليهود إلى صراع بين اليهود والعرب وهو الذي مازال مستعراً .

وقد بدأ هذا العمل بالالتفاف حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي كان يعرف أبعاد مؤامرة الغرب ويدافع عن الأمة بالدعوة إلى جامعة إسلامية تضم المسلمين خارج دولة الخلافة وداخلها للوقوف في وجه الخطر الزاحف .

وكان التركيز على السلطان عبد الحميد شديداً وقاسياً ولكن السلطان كان عميق الإيمان واعياً للمؤامرة ولذلك فقد عجزوا عن احتوائه وبالتالى عمدوا إلى إسقاطه على النحو الذي حدث ، وكان إسقاطه مقدمة لإسقاط الخلافة الإسلامية وإقامة نظام غربي معاد للإسلام في تركيا بعد تغريبها عن طابعها الإسلامي والانتقال بها إلى عالم الغرب كلية ، وكان تمزيق الدولة العثمانية وإشاعة روح القوميات والإقليميات مقدمة لغرس الكيان الصهيونى في فلسطين على أنها قومية عنصرية دينية بدعاوي تخليص اليهود من إبادة النازي أو الادعاء بأنهم قوة عصرية ، **وقد أعطى من لا يملك أرضاً لمن لا يستحق** . ومن ثم قام كيان زائف لا يملك حقاً ولا يملك قوة اقتصادية ولا يملك وحدة في العنصر أو الدماء .

ومن أجل السيطرة على الأمة الإسلامية وتمزيق وحدتها وغرس عنصر غريب في قلبها كانت الخطة الواسعة النطاق التي جرى تنفيذها منذ ذلك الحين عن طريق الاستشراق والتبشير ومن خلال المدرسة والصحيفة والمحكمة والمصرف ، في محاولة لاستنزاف ما تملك هذه الأمة وتكبيلها بالقيود ، فكان صرفها أولاً عن شريعتها وإحلال القانون

الوضعي بديلاً لها وهدم اقتصادها بفرض النظام الربوي عليها ، ثم كان دفعها دفعاً إلى مجال القوميات والإقليميات لهدم فكرة الوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية وحجب الخلافة الإسلامية ثم كان فرض النظام الليبرالي في مرحلة والنظام الماركسي في مرحلة أخرى ، وكان لابد أن يساير ذلك نظام عسكري يقوم على سلطان الدكتاتوريات ويعود الحكم الفردى والتسليم الكامل لخطوات الخضوع للقوى المسيطرة ، وقد أدى هذا إلى مجموعة من الهزائم والنكسات وتمكين النفوذ الصهيوني العنصرى من التوسع حتى استطاع السيطرة الكاملة على بيت المقدس .

ثم عاشت المنطقة العربية في صراع بين نفوذين يخترقانها وهما : النظام الغربي الرأسمالي ، والنظام الماركسي ، ثم بدأت تتعرض لنفوذ الصهيونية بحكم معاهدة كامب ديفيد .

وبالرغم من أن تجارب الأقطار العربية خلال فترة الستينات والسبعينات كشفت عن فساد النظام اللبيرالي والنظام الماركسي وهزيمة مفهوم القومية الوافد ، فإن هناك محاولات ما تزال تجرى لإعادة العرب إلى أوضاع جديدة تمكن النفوذ الأجنبي من السيطرة واستمرار التبعية .

فقد سقطت الدولة العثمانية ، ثم سقطت الخلافة الإسلامية ، ثم سقطت القدس ، ومن قبل سقطت الأنظمة الإسلامية وتوارت وراء القانون الوضعي ثم سقطت الوحدة الإسلامية فكان لابد أن يقف المسلمون وقفة المواجهة ثم المقاومة لذلك كله .

ومن هنا كانت اليقظة الإسلامية بخطواتها المتصلة التي لم تتوقف بالرغم من الحرب التي يشنها خصوم الإسلام من أجل محاصرة المفاهيم الإسلامية وحجبها والتشكيك فيها ، ولكن اليقظة الإسلامية استطاعت أن

تخطو نحو (**الصحوة**) عن طريق حركة التغيرات الجديدة التي تتنامى في المجتمع الإسلامي رفضاً للمفاهيم الوافدة والتماساً للمنابع والأصول .

بعد سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين كثف الغرب خطوات المؤامرة على أرض الإسلام في مخطط جديد وخطير وكان المسلمون قد بدأوا نهضة جديدة نحو استعادة الإسلام في مفهومه الصحيح واسترجاع اللغة العربية الفصحى باعتبارها لغة القرآن وكانت وراء الغرب تجربة الحروب الصيليبية التي انتهت بهزيمتهم فكان لابد من مخطط جديد وكان ذلك المخطط هو :

تطويق عالم الإسلام من خارجه :

من الهند وأندونيسيا

وكان الغرب يهدف إلى عدة أمور :

أولاً : تحطيم هذه النهضة الجديدة باحتوائها .

ثانياً : السيطرة على التراث الفكري الإسلامي ونقله إلى الغرب .

ثالثاً : ضرب مقومات الإسلام بإشاعة الشبهات حول القرآن والسنة واللغة العربية والتاريخ .

ومن هنا كانت حملة نابليون أولاً على مصر والسيطرة الفكرية عليها ثم توجيه **محمد علي** إلى هدم دعوة التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وكانوا قد أرسلوا أتباعهم يدرسون المخاضة ولم يمر أكثر من أربعة قرون على فتح **القسطنطينية** حتى كانت رسالة التحريض التي كتبها الفيلسوف **لبينتز** ١٦٧٢ م إلى بلاط **لويس الرابع عشر** يحرضه على

السيطرة على مصر : (**إنكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها على بلاد المشرق - أي الإسلام - إلى ما شاء الله وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثنائها وهناك لا تخسرون عطف أوربا بل تجدونها مجمعة على الإعجاب بكم**) .

وقد ظل تقرير « **ليبنتز** » منهجا لسياسة فرنسا إلى غزو دار الإسلام في مصر حتى جاء « **نابليون** » وانهزم وتحطم مشروعه .

وجاء بعده الاستعمار البريطاني والفرنسي والهولندي وقاومهم المسلمون بالأجساد المتراصة من تحت راية الإسلام نفسه ، ثم جاءت الصهيونية العالمية في موجة جديدة وستلقى نفس المصير .

✍

وقد واصل الغرب انقضاضه على دار الإسلام منذ اليوم الأول لظهور الإسلام وقبل الحروب الصليبية ومنذ أيام الدولة البيزنطية مما أسماه اللورد سالسبري : وجوب إعادة ما أخذه « **الهلال** » من « **الصليب** » « **للصليب** » إثر ما قاله « **بيرس سميث** » في كتابة عن « **سيرة المسيح** »:

أن هذا الاستيلاء على بيت المقدس كان حرباً صليبية ثانية أدركت المسيحية فيها غايتها .

كان الانقضاض الأول على الأمة الإسلامية ، بالإشتراك مع التتار في تحالف صليبي تتري باطني في معركة سقوط بغداد ثم مع هولاكو لتعاون النصرانية الأوربية في محاصرة عالم الإسلام .

وقد أثبتت الرسائل المسيحية ، كما جاء في كتاب الأمير « **كيف** » : أن الحروب الصليبية لم تكن حروباً مسيحية وإنما كانت تدبيراً يهودياً

لوضع العالمين المسيحي والإسلامي في حرب عامة مدمرة دامت أكثر من عصرين تمهيداً للوصول إلى فلسطين وهكذا تؤكد مصادر كثيرة بتعاون كل العناصر في التآمر على الإسلام .

وكان لليهود دور كبير في تقليص دولة الإسلام في الأندلس ، ففي مذكرات الأمير عبد الله بن يلقين أخبار كثيرة عن دورهم قبل العصر المرابطي ثم كان لهم دور في إنهاء دولة غرناطة وخروج المسلمين من الأندلس نهائياً .

ولم تنقطع الحروب الصليبية من عالمنا الإسلامي فبعد أن استمرت حملاتهم تتدفق على المسلمين من عام ١٠٩٢ حتى عام ١٢٧٠ ثم رجعت منهزمة ، لم تلبث أن عادت بعد قيام الدولة العثمانية بثلاثة قرون ظلت خلالها أوربا تتآمر وتخطط وتتواصى جيلاً بعد جيل عبر الكتب المؤلفة للتاريخ أن لا عزة ولا أمن ولا رخاء لأوربا إلا بالقضاء على القوة الإسلامية الممثلة يومها في الأسطول التركي الإسلامي الذي أقض مضاجع أوربا بعد الحروب الصليبية التي فشلت ملوك أوربا وفرسانها أن تنال بها شيئاً وعادت خائبة بعد أن خلفت مئات الألوف من القتلى .

عادت أوربا حيث فاجأت أساطيل البندقية والفاتيكان وأسبانيا ورهبان مالطة ، الأسطول التركي المسلم في « ليبانه » باليونان عام ١٥٧١ وحطمته فتحطمت به قوة الإسلام البحرية إلى حين .

✍

الفصل الثاني

الدولة العثمانية

أنور الجندي

بيت الحكمة - ص. ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

حملت الدولة العثمانية لواء الإسلام ستة قرون وربع القرن كانت خلالها حامية للمسلمين رافعة لواء الخلافة وامتدت رقعة حكمها من (فيينا) عاصمة النمسا وأوربا الشرقية والشرق العربي إلى حدود المغرب وظهر منها ملوك يفخر بهم الإسلام في مقدمتهم محمد الفاتح الذي فتح القسطيطنة وبايزيد الذي غزا هنغاريا والنمسا حتى وصلت جيوشه إلى عاصمة النمسا (فيينا) فدخلت تحت حكمه هنغاريا ورومانيا وبلغاريا واليونان والبوسنة والهرسك والجبل الأسود وجزيرة كريت وألبانيا من البلدان الأوربية فضلاً عن الحجاز والشام والعراق ومصر وبلاد المغرب .

وقد أوضحت صفحات التاريخ التزام العثمانين وقادتهم بالإسلام منهجاً ونظام حياة .

وتعد الفترة الزمنية التي شغلها الأتراك العثمانيين في سفر تاريخنا الإسلامي أطول فترة استظلت فيها الأمة الإسلامية براية واحدة فقد حكمت الدولة العثمانية أكثر من ستة قرون متتالية بعد أن أسسها عثمان بن أرطغرل عام ٦٩٩ هـ - ١٣٠٠ وإلى أن تمكن مصطفى كمال أتاتورك بتحريض أعداء الإسلام من إلغاء الخلافة العثمانية ١٩٢٣ .

ولقد كانت الدولة العثمانية - كما شهد بذلك عشرات المؤرخين - دولة إسلامية المنطلق والراية والهدف ، نعتمد في ذلك على الوصايا والأدلة التى أوردتها مؤلفاتهم .

ولقد كان أبرز معالم الدولة العثمانية سماحتها مع العناصر غير المسلمة على نحو كان له أبلغ الضرر بها فيما بعد ، على النحو الذي أورده بعض المؤرخين ، كذلك فقد عملت الدولة العثمانية حسب وصية خلفائها

على نشر الإسلام هداية للناس وحماية لأعراض المسلمين وأموالهم .

وفي الدولة العثمانية كانت الشريعة الإسلامية هى شريعة البلاد الأولى وكان القانون المدني الذي طبق بها تحت اسم (المجلة) عام ١٨٦٩ عبارة عن تقنين لأحكام تلك الشريعة أخذاً بمذهب الأمام أبى حنيفة وكان تطبيق الأحكام على جميع رعايا الإمبراطورية العثمانية سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين .

وكان دخول العرب في الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ضرورة تاريخية حتمت استكمال السلطة في الوطن الإسلامي ، وخاصة في آسيا العربية وشمال أفريقيا إلى أكبر قوة عسكرية من أبناء الإسلام لصد خطر الافناء الصليبي الذي صاحب نهضة الإفرنج واكتشاف رأس الرجاء الصالح وبداية عصر الكشف والنهب الاستعماري .

وقد دخل أمراء لبنان وشريف مكة تحت الحكم العثماني باختيارهم ، أما دخول الجزائر تحت هذا الحكم فقد تم دون حرب بل بمحض إرادة حاكمها خير الدين المعروف ببربروسا فقد استطاع الأتراك أن يصدوا الخطر عن العالم الإسلامي وأخروا احتلاله ما بين ثلاثة وأربعة قرون (الجزائر ١٨٣٠ – المشرق العربي ١٩١٦) ولهم بذلك في ذمة الإسلام والمسلمين دين لا ينقصه ولا يشوهه ، حسب تعبير جلال كشك ، وقد صدت المدافع التركية سفن المستعمرين الجدد وطاردهم الأسطول التركي (ألفا سفينة) ، فانطلقت سفنهم تعيث فسادا بعيداً عن مدافع الأتراك وقد (كشفت) ونهبت وأبادت شواطئ إفريقيا الغربية والجنوبية ثم سلبت الشرق الأقصى من الحكم الإسلامي (الهند – أندونيسيا –

الفيلبين - الملايو) والولايات الإسلامية ما بين روسيا والصين وإيران .

✍

ولقد هوجمت الدولة العثمانية من الغرب أشد ما يكون الهجوم واتهمت بأبشع الاتهامات وما تزال الحملة متجددة على الدولة العثمانية في هذه المرحلة من تاريخنا وبعد تنامي الصحوة الإسلامية في تركيا نفسها وهزيمة المخطط الذي حطم الدولة العثمانية وأسقط الخلافة ووجهها نحو تغريب شديد الخطر .

ومن هنا كانت الدعوة إلى فتح ملف الدولة العثمانية من جديد للرد علي اتهامات خطيرة أبرزها :

إن التسامح الإسلامي والإيمان بالمساواة الذي نشرته الدولة العثمانية في جميع الأقطار التي تحكمها كان من بساطة المسلمين وعدم حيطتهم فهو الذي مكن القوميات البلقانية من النمو والتطور إلى حد امتشاق السلاح والانفصال بمعونة الكنيسة الروسية وخيول وأموال القيصر .

وبينما استطاع الاستبداد الروسي أن يقصم ظهر الولايات الإسلامية ويمتص منها كل حيوية وهى أعرق ثقافة وأكثر تحضراً من شعوب البلقان حيث حكمت الدولة العثمانية جميع الأقليات في ظل تسامح ديني وجنسى نادر بينما حرمت الشعوب المسلمة في روسيا القيصرية من كافة الحقوق بحيث استحال أن تنمو بداخلها أي مقاومة جدية .

يقول مؤلف كتاب الإسلام قوة الغير العالمية « باول شمتر » : كيف قضى الأتراك على دولتهم بنقض قوانين الإسلام ، منها منحت الامتيازات

للدول الأجنبية والسماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعباداته وإعلان حرمة الأديان وإعطاء كل طائفة الحق في إنشاء مدارس خاصة بها وبهذا انهارت الجسور الأخيرة التي حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافي الذي نبع في الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر الممالك التي فتحتها أوربا في الشرق .

لقد بدأت حقيقة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذي سيقرر مصير العالم الإسلامي بالنسبة لاستمرار التطور فلأول مرة في تاريخ الإسلام يسوي بين المسيحي والمسلم في قانون مدني في دولة إسلامية .

وقد قصد الباب العالي بهذه التسوية ١٨٥٦ أن يلعب بها دوراً في الأرجوحة السياسية وفي عالم الصراع بين القوى الكبرى غير أنها كلفته كثيراً فقد أنقصت من سلطاته المطلقة ، وأضعفت هيبته داخل المملكة وفي أوساط المواطنين المسلمين ودفعتهم إلى التحرك تحت ضغط القوى الغربية فاندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا ، ففي أواخر العقد الخامس فوجئ الشعب بإصلاحات في القضاء وفي أجهزة الدولة المالية ولم يتوقف عند هذا الحد بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم .

ثانياً : كان ما يسمى استعمار الدولة العثمانية للعرب ومحاولة طمس آثاره باسم الإسلام أكذوبة كبرى فإن ذلك لم يحدث في تركيا المسلمة أو في شعبها المسلم على العرب المسلمين بل حدث ذلك عندما آمن زعماء تركيا بالقومية التركية (الطورانية) وسيادتها على جميع رعايا الدولة العثمانية وذلك يعني أن تركيا لم تكن تحكم بالإسلام بل كانت ضد الإسلام

وقد ظهر ذلك جلياً في نتائج مؤامرة أتاتورك ، أولئك الذين حاربوا الإسلام وأبعدوه عن دين الدولة الرسمي وتم لهم ذلك حيث أصبحت نتيجة تلك الثورة علمانية لا علاقة لها بالإسلام .

✍

ومن هنا يجب ملاحظة التفرقة الواضحة بين عهد السلطان عبد الحميد وعهد الاتحاديين الذي حمل لواء التفرقة بين العرب والترك وكان ذلك من مخطط الصهيونية ومحافلها الماسونية في سالونيك وغيرها التي استقطبت زعماء الاتحاديين واستخدمتهم في تحقيق أهدافها .

ثالثاً : يجب التنبه للأحكام الشائعة التي بثها خصوم الإسلام من أن تخلف الوطن العربي في العصر الحديث مرتبط بالسيطرة العثمانية على معظمه منذ أوائل القرن السادس عشر وهذا الحكم يتضمن كثيراً من الهروب من مواجهة الواقع

يقول الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى .

لو حاولنا أن نناقش هذه المقولة على أساس المنظور التاريخي لوجدنا أن عوامل الضعف قد زحفت على المجتمعات العربية الإسلامية قبل الفتح العثماني بوقت طويل فهى ترتبط أساساً بعاملين رئيسيين هما الحكم الاستبدادي وما اقترن به من إقفال باب الاجتهاد (أي تعطيل العقل) مما أدى إلى تسلط الفكر المحافظ والجمود .

رابعاً : إن ظهور العثمانيين قد ملأ فراغاً في التاريخ والجغرافيا الإسلامية إذ أنه قد تزامن مع ظهور وانتصار القوى الصليبية في غرب العالم الإسلامي حيث سقطت الأندلس وكادت أن تتبعها بقية دول المغرب

العربي ولكن في الوقت الذي سقطت فيه حواضر المسلمين في الأندلس ، فتحت القسطنطينية وفي الوقت الذي اندفع فيه صليبيو أسبانيا نحو العالم الإسلامي من الغرب اندفع فيه الفاتحون العثمانيون نحو أوربا من المشرق وهكذا اندفعت دماء جديدة في الشرايين الإسلامية وبفضلها بقى الشمال الأفريقي علي الأقل عربياً مسلماً حتى الآن .

وبسبب الأطماع الاستعمارية كانت المخططات الأوربية للقضاء على الدولة العثمانية على مدى قرنين من الزمان وأخذت أوربا تغذى النزعات الانفصالية من الداخل حتى أرهقت الدولة العثمانية واستنزفت طاقتها فكان طبيعياً أن تنهار في أول مواجهة شاملة في الحرب العالمية الأولى .

✍

لقد واجهت الدولة العثمانية مؤامرة ضخمة طوال ستة قرون كاملة ، حيث واجهت وصول البرتغاليين الصليبين إلى شرقي الجزيرة العربية ومحاولتهم مرتين ١٥١٧ - ١٥٢٠ دخول البحر الأحمر من منفذه الحيوي للاستيلاء على جدة والزحف إلى مكة لهدم الكعبة المشرفة ويعتبر هذا الغزو أخطر غزو أوربي صليبي في التاريخ الحديث لأقاليم عربية إسلامية تحت شعار الصليب والمدفع .

وبقيت حاله التهديد الخارجي للكيان الإسلامي قائمة لم تنقطع في أي زمان ومكان وقد استعصيت الدولة العثمانية على هذا التهديد لفترة طويلة وكانت منيعة بقدر التزامها بالعقيدة وحين انحرفت عن منهج الله عجزت عن استيعاب المتغيرات والتطورات من حولها ، فقد كان الالتزام بالإسلام هو الذي صنع الدولة العثمانية وقادتها ولم يكن هناك سبيل إلى المستقبل الآمن خلاله ولقد ترابطت كل القوى المعادية للإسلام وانطلقت

للقضاء على هذا الكيان الذي كان قد أمكن خداعه والنفاذ إلى داخله وكانت الامتيازات التي منحت للعناصر الأجنبية عن طريق فتح أبواب الإرساليات لتدعو إلى القوميات والأديان هى أخطر خطأ وقعت فيه الدولة العثمانية فقد جرى عن طريق الامتيازات التدخل في شئون الدولة العثمانية والتآمر باسم حماية الأقليات المضطهدة .

وكان الاتحاديون صنائع المحافل الماسونية هم الذي أدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى لتهزم وتقسم وتعرض عليها شروط كرزن الأربعة :

١ – قطع كل علاقة بالإسلام .

٢ – إلغاء الخلافة .

٣ – إخراج أنصار الخلافة من البلاد .

٤ – إتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم .

اتهامات باطلة

وجهت إلى الدولة العثمانية في العقود الأخيرة عن طريق غلاة القوميين اتهامات كثيرة باطلة ومعظم الاتهامات التي توجه إليهم إنما هى في الحقيقة توجه إلى المرحلة التي حكم فيها الاتحاديون العلمانيون الذين كانوا دعاة للطورانية ومن هنا فقد وجب دراسة تاريخ الدولة العثمانية وفق المنطلقات الحقيقية التي انطلقت منها وهى حماية بيضة الإسلام وحماية الحرمين الشريفين فضلاً عن البعد الشرعي في ضرورة بسط نفوذ دولة يرأسها خليفة المسلمين الوحيد .

فليس صحيحاً ما يوجه إلى الدولة العثمانية من عبارات القرصنة أو الاستعمار ، فضلاً عن أن المفاهيم القومية لم تظهر حتى بداية القرن العشرين ، ولم تكن الدولة العثمانية تتحدث بهذا البعد الإقليمي أو القومي ولقد بقيت المدارس تدرس باللغة العربية – وليست التركية – طيلة ستة قرون من حكم العثمانيين للبلاد العربية ، كما أن اللغة التركية لم تكن تسمى (لغة) أصلاً ولا قواعد لها .

ولم تنس أوربا أن العثمانيين هددوها مرتين تهديداً حقيقياً ولأجل ذلك شوهوا تاريخها وأغروا العداوة بين الشعوب ، ولا أن الدولة العثمانية قائمة بالإسلام وأن أجيالها حاربت لذلك ، أما الفكرة العنصرية فلم تكن قائمة إذ ذاك وكان البعد القومي حديث عهد تماماً ، ولقد كانت جهود الدولة منصبة على الرد على توسعات البرتغاليين وسواهم وكانت الدولة العثمانية تطلب الحماية للمسلمين ليس في مناطق نفوذها فحسب بل في بلاد أخرى بعيدة كالهند والمغرب .

وقد حافظت الدولة العثمانية على وضع المنطقة ولم تساهم في تقسيمها غير أن الضعف العام والمعاهدات والارتباطات المتنوعة هى التي أرهقت كاهل الدولة العثمانية .

وكان أخطر ما قامت به الدولة العثمانية مقاومة البرتغاليين عندما عزموا على فرض سيطرتهم على منطقة الحجاز والبصرة وقد ردوهم بشدة لحماية الحرمين الشريفين والحيلولة دون نقل التجارة إلى الغرب وإلى أيد غير إسلامية وقد حال الموقف الحازم من العثمانيين دون وقوع الحجاز والبصرة في أيدي غير المسلمين فبقيت تلك المناطق تحت الإشراف العثماني فكان لهم التفوق في البحر الأبيض المتوسط كما

نجحت أعمالهم الحربية والسياسية في إنهاك الفرنج مادياً ومعنوياً .

كما عجز البرتغاليون عن منع تدفق السلع الشرقية على منافذ البحر المتوسط عبر الطريقين الغربيين ، كما ثبت العثمانيون هيمنتهم على العراق ، ولا ينفك دور الدولة العثمانية في الخليج عن رسالتها في البلاد الأخرى وهى إعلاء كلمة الله – تبارك وتعالى – وتوحيد كلمة المسلمين وجمع المسلمين حيث كانت الدولة العثمانية تمثل تمثيلاً رسمياً وفعلياً الخلافة السنية بعد معركة مرج دابق .

وهذا لا يمنع أنه كان للدولة العثمانية أخطاء ، إلا أنها دون ريب كانت قائمة على الإسلام أجيالها حاربت لذلك ، ويجب التفرقة بين سياسة الدولة وتصرفات الولاة .

وقد حافظت الدولة العثمانية على وضع المنطقة ولم تساهم في تقسيمها وحالت دون وقوع الحجاز والبصرة في أيدي غير المسلمين حتى انتهت مرحلة البرتغاليين وجاءت مرحلة الإنجليز والهولنديين .

✍

ويقول الدكتور عبد الجليل التميمي أن الدولة العثمانية قد قامت بأفضل ما تستطيع عمله ، وأن حركات الإصلاح في التاريخ العثماني كانت ضرورية ولكنها جاءت متأخرة .

وقال : إن أخطر ما هنالك أن مناهجنا الدراسية العربية والتعليمية مازالت سلبية الموقف من الدولة العثمانية وأن هناك تياراً غالباً يقول أن الدولة العثمانية تمثل تاريخاً احتلالياً استعمارياً وقد جرى هذا التيار مع مفاهيم المؤرخين في الغرب الذين ظلموا الدولة العثمانية ولأن التيار الذي

يرمي إلى الإنصاف قد بدأ فعلاً يتسع ويكبر وهو تيار يرى أن الدولة العثمانية قامت بأفضل ما تستطيع عمله لمجابهة التيارات الغربية والحفاظ على وحدة الأمة وعلى وحدة لغتها ومقدساتها .

ولقد تعرضت الدولة العثمانية إلى هزات اقتصادية وسياسية منذ أواخر (القرن ١٨) ودخلت القرن التاسع عشر في صورة الرجل المريض بكل أبعاده ووهنه وهذا انعكس بالتالي على البلاد العربية وليست الدولة العثمانية مسئولة عن ذلك ولكنه الإطار العام الذي كانت تعيش فيه الدولة .

ولما قامت حركات الإصلاح كان الوقت قد فات وقد عاق الإنكشاريون تقدم الدولة وقضاء السلطان عليهم عام ١٨٢٦ جاء متأخراً لسوء الحظ .

ولم تكن البلاد العربية مهيأة لأن تقوم بنشاط سياسي بعيد عن الدولة العثمانية ، فالجزائر سقطت ١٨٣٠ ، وليبيا كانت العائلة الحسينية ، ومحمد علي في مصر ، هناك عوامل دقيقة وخطيرة جداً هى عوامل التسرب السياسي الغربي .

هذا التسرب هو الذي غذى النزعة القومية العرقية نوعاً ما في الشام وأعطى أحقية التحرك الأيدلوجي السئ ضد الدولة العثمانية كرد فعل .

ولكن المخلصين من رجال الدولة كانوا في أواخر القرن الماضي يرون تقوية الرابطة الإسلامية : الأمر الذي سيعطي المد الحضاري العربي الإسلامي للدولة العثمانية ويجنبها التقسيم فيما بعد .

أما تحريك النزعات القومية في أواخر القرن ١٩ ، فقد بدأ بالنزعة

القومية المتشددة في البلقان ، هذه النزعة الشوفينية القومية بعد فشل العثمانين ١٨٢٧ وكان وراء ذلك فرنسا وإنجلترا بالدرجة الأولى ، فهم الذين غذوا النزعة القومية تماماً وأدخلوا في المفهوم اللغوي اصطلاحات الأمة والشعار والعلم والنزعة القومية ، وكان لرفاعه الطهطاوي دور في إدخال كثير من هذه المصطلحات للعالم العربي الإسلامي ، كما كان ذا أثر فاعل في كل المناطق وهناك المسارح والتمثيليات التي نقلت وترجمت إلى لغتنا ، ورجال التبشير والجامعات الأجنبية .

فالحركة العربية لم تنبع من عدم بل نبعت من وضع ومحيط فكري مهيئ لذلك ، قام العرب بحركات التحرر ولما جاء الاتحاديون ورأوا البلقانيين والعرب على تلك الحال تولد لديهم الإحساس الشوفيني والتعصب العرقي .

وإذا كان التيار العربي الشوفيني هو الأسبق ولا يمكن تجاهل الدور الذي لعبه اليهود الماسون في إسقاط الخلافة فقد أصبح هذا الدور مدروساً معروفاً وهو دور شنيع في تفتيت الدولة العثمانية وفي كسب الأنصار لذلك والوثائق واضحة جداً وهناك عشرات الدراسات حول هذا الموضوع .

ولقد كان السلطان عبد الحميد أحد القلاع الأساسية والثابتة والصامدة أمام سريان وتوسع النفوذ اليهودي في المنطقة ولأجل هذا أسقط وضرب .

ولقد كان العثمانيون يعتبرون أنفسهم محملين بالرسالة وناقلين لها ومن يدرس موقف محمد الفاتح يفهم أنهم كانوا رجال مسئولية على مستوى البلاد العربية والإسلامية ، لقد قاموا بما لم تقم به أي دولة

إسلامية على الإطلاق . نعم كان هذا قائماً منذ القرن الثامن عشر إلا أنهم بعد ذلك أصبحوا يدافعون عن أنفسهم ولم يعودوا قادرين على حماية المسلمين ، وذلك لأسباب عديدة ولا يمكن تحميل الدولة العثمانية إطلاق مسئولية الأضرار أو التجني أو القتل مما يقوم به أحد الولاة وهذا يقع في أي وقت من دول العالم اليوم ، لقد بقى الحرمان الشريفان محط العناية الخاصة من قبل الدولة العثمانية كذلك جوانب أخرى متعلقة بالعلم وأهله ، لقد كان في دمشق وحدها أربعمائة مدرسة .

والدولة العثمانية لم تفتح الأراضي الإسلامية للغزو الإقتصادي وإنما حتم ذلك طبيعة التبادل ، هناك تبادل وتجارة وهناك حرية والعامل الاقتصادي لم يشكل عنصراً جوهرياً في الفتح وقد عملت الدولة على تقوية التبادل الاقتصادي التجاري بين المنطقة العربية كلها وهذا شئ طبيعي ما دام المجال السياسي مفتوحاً وازدهر بذلك الوضع الاقتصادي الداخلي .

والخلاصة أن العامل الاقتصادي لم يكن موجوداً في عملية التوسع والفتح وكل تفسير مادي أو اقتصادي أو فلسفي لتلك الفتوح يسئ إلى الحقيقة ويجانب الصواب .

وإن دور اليهود والماسون في إسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية حقيقة لا شك فيها .

الفصل الثالث

الخلافة

أنور الجندي

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

كان إسقاط الخلافة الإسلامية هو أكبر أهداف المؤامرة التي قامت بتدبيرها الكنيسة المسيحية بالاشتراك مع اليهود والمسيطرين على نظام الربا والدونمة الذين نظموا محافل الماسونية ونشروها في كل مكان من أرض الإسلام وأغروا الكثيرين ممن لا يعرفون الهدف الأساسي لها بالدخول فيها تحت اسم كاذب مضلل .

(حرية - إخاء - مساواة)

ولقد سقطت الخلافة الإسلامية في ٢ مارس ١٩٢٤ م (١٣٤٠ هـ) بعد ألف وثلاثمائة وأربعين عاماً من إشراقها وقد استطاعت أن تمكث أكثر من خمسمائة عام تحمي ديار المسلمين وتذود عن المقدسات وتحارب الاستعمار وترد غاراته .

ولما كانت المؤامرة قد رسمت لإدخال عنصر غريب على قلب المنطقة الإسلامية - هذا العنصر هم اليهود - فقد جرى ترتيب واسع خطير بخطوات متوالية تقوم أساساً على رسم صورة ظالمة للخلافة وللإسلام وإذاعتها وموالاة بثها سنوات وسنوات ثم العمل على احتواء السلطان عبد الحميد الذي كان متيقظاً لمؤامراتهم عارفاً بمخطط الماسونية ودور الاتحاديين ومن ورائهم من خصوم الإسلام سواء في غرب أوربا أو في روسيا القيصرية من خلال تاريخ طويل من التآمر وإثارة القوميات وخداع بعض البارزين .

يقول السلطان عبد الحميد في رسالته إلى الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق :

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جميعة الاتحاد والترقي المعروفة باسم (جون يورك) وتهديدهم اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة . لقد أصر هؤلاء الاتحاديون على أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية ذهباً ، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي :

[إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً فلن أقبل تكليفكم هذا بوجه قطعي] .

[ولقد خدمت الأمة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين] .

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سالونيك فقبلت هذا التكليف الأخير .

هذا وقد حمدت الله وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة (فلسطين) وقد كان بعد ذلك ما كان .

قال الخليفة عبد الحميد الثاني لهرتزل والحاخام موسى ليفي :

إن أراضي الوطن لا تباع ، إن البلاد التي امتلكت بالدماء لا تباع إلا بالثمن نفسه .

وكان اليهودي إيمانويل قره صو من بين أعضاء اللجنة التي أبلغت

الخديو المسلم قرار خلعه .

وهكذا ركزت المؤامرة على أمرين : على التشكيك في الخلافة أساساً كنظام إسلامي وعملت على تشويه سمعه الخليفة نفسه .

بدأت المؤامرة في الدولة العثمانية في حملة مستمرة للنيل من الخلافة والتشكيك فيها وصرف همم المسلمين عن المطالبة بها بعد أن عاشوا تحت لوائها أربعة عشر قرناً من الزمان .

وحملت بريطانيا حملات عنيفة على الخلافة في صحافة العالم وكلفت مستشرقا كبيراً بالكتابة عنها هو اليهودي مرجليوث .

ونشر هذا الكتاب بصورة وأخرى في الهند حيث أقام المسلمون جمعية الخلافة للدفاع عنها ، وفي تركيا حيث جرى تبرير ما يجري إعداده .

وقد نقل الشيخ على عبد الرازق كتاب مرجليوث إلى اللغة العربية مع إضافات وكتب عليه اسمه (حسبما أشار إلى ذلك البحث الذي أعده الدكتور ضياء الدين الريس) أما بحث تركيا فقد رد عليه السيد رشيد رضا بكتاب كامل عن الخلافة وكشف زيفه شيخ الإسلام مصطفى صبري في كتاب نشره بعد هروبه من الدولة العثمانية ، كما كتب عبد العزيز جاويش مقالات في صحف مصر عن موقف كمال أتاتورك .

(انظر كتابنا : معالم تاريخ الإسلام المعاصر) .

وفي هذه الفترة كتب الدكتور عبد الرازق السنهوري رسالة عن الخلافة قدمها إلى جامعة السوربون ١٩٢٦ تحت عنوان الخلافة الإسلامية وكيف تتطور لتصبح هيئة أمم شرقية .

حاول خصوم الإسلام القول بأن الخلافة لا أصل لها من الدين في دعوة مضللة إلى الفصل بين الدين والدولة . وإن الإسلام ليس إلا عقيدة فردية روحية وأنه لا صلة له بالدنيا ولا بالسياسة ولا بالاجتماع ، وإن رسالة النبي انتهت بموته وكذلك زعامته فليس لأحد أن يخلفه في رسالته ولا في زعامته وكلام زائف من مثل هذا وصولاً إلى القول بأن الخلافة ليس لها أساس من الدين بل هى ضد الدين ومخالفة لمبادئه .

وقال علي عبد الرازق أن النبي ﷺ لم تكن له حكومة بل كان نبياً أما أبو بكر فكانت حكومته زمنية لا صلة لها بالدين .

وقد فتح هذا القول الباطل آفاق البحث من جديد حول حقيقة الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع . وأنه دين ودولة ، وأن الإسلام مجموعة من المبادئ تنظم حياة الفرد والمجتمع ، بل أن بعض المفكرين الغربيين كتبوا في هذا أمثال الدكتور فتزجيرالد الذي كتب تحت عنوان قانون المحمدية حيث قال أن الإسلام ليس ديناً فحسب A Religion ولكنه نظام سياسي أيضاً A Paletucal System ، وعلى الرغم من أنه ظهر في العهد الأخير بعض أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين ، فإن صرح التفكير الإسلامي كله قد بني على أساس أن الجانبين متلازمان ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

وقال نلينو : أسس محمد في وقت ما ديناً ودنيا وكانت حدودهما متطابقة طوال حياته .

وقال شاخت : على أن الإسلام يعني أكثر من دين ، إنه يمثل أيضاً نظريات قانونية وسياسية وجملة القول أنه نظام كامل من الثقافة يشمل

الدين والثقافة معاً .

وقال هاملتون جب : صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم ، وله قوانينه ونظمه الخاصة به .

✍

وقد أشارت صحيفة اللواء المصري في ٥ سبتمبر ١٩٢١ إلى هذه المحاولة الخطيرة تحت عنوان (انكلترا والخلافة الإسلامية) حيث كانت تجري المؤامرات في سبيل إعداد الخطة قالت : إن مما تحاوله إنجلترا في هذه الأيام من تحقيق ذلك البرنامج القديم الذي وضعته نصب عينيها من قرون مضت في سياستها نحو الإسلام والمسلمين فإنها لم تفتر لحظة واحدة من السعي في تفكيك جامعته وتمزيق رابطتهم حتى يكونوا عزلاً من كل مقاومة وهدفاً لأغراضها الاستعمارية الواسعة ، فقد أدركت إنجلترا سر هذه الرابطة الإسلامية التي تجعل المسلمين كتلة واحدة بصرف النظر عن الأجناس واللغات (وهى الخلافة الإسلامية) فأخذت في معاكستها للقضاء عليها ولم تنجح وها هى اليوم تحاول تحقيق هذه الفرصة من جديد فقد حاولت إنجلترا أن تقضي على تركيا والخلافة من الوجهة المادية فتزيل ملكها من الوجود فأعرت اليونان ولكن ظهر الآن أن تحقيق هذا الغرض أصبح في صالح المسلمين وأن الأتراك اليوم بمن انضم إليهم من مسلمي القوقاز والتركستان والعجم والأفغان هم أقوى مما كانوا في أي عصر من عصور تاريخهم ، فهم لا يرتكزون على القوة الحربية فقط بل وعلى قوة اتحاد المسلمين حول دولة الخلافة وهاهم الهنود قد قاموا في وجه إنجلترا ثائرين مدافعين عن الخليفة ولما لم تنجح إنجلترا في القضاء

على تركيا ومحو ملكها من خريطة العالم أخذت تدس الدسائس ... إلخ .

وكان هذا إرهاصاً بالخطر المتربص بالوحدة الإسلامية والذي تحقق بعد سنوات قليلة .

✍

وعندما أسقطت الخلافة عمت الفرحة الغرب كله فقد أخذوا ثأرهم من الإسلام الذي فتح القسطنطينية وسيطر على أوربا أربعة قرون حتى قال لويدجورج رئيس وزراء بريطانيا ، قضى الأمر وألغيت الخلافة الإسلامية ، إن عاصفة الحرب التي ثارت ١٩١٤ / ١٩١٨ قد زعزعت شجرة البيت العثماني ثم اقتلعتها بخلع آخر الخلفاء وطرد الأسرة كلها كما أنها زعزعت شجرة الخلافة التي ظلت قائمة أكثر من ألف عام ثم أسقطتها على الأرض كما تسقط أعجاز النخيل الخاوية ، وقارن بينها وبين البابوية وما أبقته الأيام إلى تلك الساعة في يد ملك إنجلترا من سلطة روحية .

✍

ولا ريب أن الدور الذي قام به مصطفى كمال أتاتورك في مؤامرة الخلافة خطير فقد ظاهرته بريطانيا والاتحاديين والماسون والدونمة وقوى أوربا جميعها .

واستطاع أن يقضي على الوجه الإسلامي لدولة الخلافة سواء من ناحية العقيدة أو القوانين أو اللغة أو الزي فكان أول من فرض العلمانية على الحكم في الأمة الإسلامية وقد وجدت دعوته أصداء واسعة في البلاد العربية والإسلامية وقد كشف الشيخ مصطفى صبرى في كتابه :

(الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية)

عدة أمور هامة :

أولاً : إظهار حقيقة الغازي (مصطفى كمال) لأنه في الحقيقة هازم المسلمين ومضيع الخلافة .

ثانياً : إنه فصل الدين عن الحكم لينفرد بكل شأن من شئونه .

ثالثاً : السير قدماً وراء أوربا .

✍

ورغم التمهيد الماكر لجعل سقوط الخلافة أمراً واقعاً وتشويه الخلافة في أذهان المسلمين وإظهار الأوربيين بمظهر المنقذ المتحضر فإن سقوط الخلافة كان له رد فعل بعيد المدى في جميع أنحاء العالم الإسلامي وقد هيأ الغرب واليهود أعوانهم لامتصاص آثار ذلك السقوط بعد بعث القوميات والطائفيات ومزقوا الوطن الإسلامي .

وقد عملت بريطانيا على أن لا تعود الخلافة مرة أخرى وأغلقت الأبواب وحرضت من يقول إنها ليست من الإسلام والهدف هو القضاء على وحدة المسلمين .

وكان إسقاط الخلافة الإسلامية منطلق للغزوة الصهيونية في السيطرة على أرض فلسطين ولإعلاء الإقليميات والقوميات ولكن سرعان ما التئم شمل المسلمين وارتفعت كلمتهم من جديد تدعو إلى الحكم بكتاب الله والجهاد في سبيله والالتفاف حول مفاهيم الوحدة الإسلامية .

وحذر المخلصون البلاد العربية من مغبة ما حدث في تركيا ، بل أن

الدولة التركية لم تلبث بعد قليل أن اكتشفت خطأ الوجهة التي ساقها إليها « مصطفى كمال اتاتورك » .

وكشف المؤرخون الأوربيون مدى الفشل الذي وقعت فيه تركيا بالخروج من الرابطة الإسلامية ، وعادت قواها بعد قليل تتجمع من جديد وتعود إلى الإسلام مرة أخرى .

لقد فشل كل ما رتبه خصوم الإسلام على إلغاء الخلافة فقد التقى المسلمون تحت لواء رابطة الأخوة الإسلامية وحاربوا الاستعمار والنفوذ الأجنبي من تحت لواء (لا إله إلا الله) وتناصروا وتعاهدوا على أن يعودوا إلى الوحدة بالرغم من كل المؤامرات التي دبرت لهم وما تزال تدبر وأخرها مؤامرة (القومية) بمعناها الغربي وما أحدثت من هزائم ، كما فشلت في تركيا الدولة الملائكية التي كان يراد أن تكون نموذجاً للبلاد العربية وفشلت المحاولات في إيران وأفغانستان وتجنبت الدول الإسلامية بعد ماسأة تركيا الوقوع في المنزلق الذي وقعت فيه .

بل لقد تنبة المسلمون إلى محاذير التعامل مع الغرب ومع القوى المختلفة فقد لفت النظر الباحث الفرنسي المنصف للإسلام (هنري دي كاستري) وصاحب كتاب (إيقاظ الغرب للإسلام) إلى القضية الخطيرة وهى ما أسماه غفلة المسلمين المسماة بالسماحة المفرطة وقال : إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم وأخشى أن تؤدي هذه المسالمة من جانب الحكومات والشعوب المسلمة إلى دمار العقيدة المسلمة وزوال المسلمين من الوجود .

كذلك فقد تطوح المسلمون وراء القوميات على أساس أن تحل محل الوحدة الإسلامية ، ولكن المفهوم الذي قدمت القومية به نفسها كان مغلوطاً

ولم يكن أصيلاً .

فقد أدعت أوليتها على الإسلام وأسبقيتها وقدمت نفسها مفرغة من جوهر الإسلام مرتبطة بالاشتراكية وغيرها فكان ذلك مصدر هزيمتها .

✍

وقد حاول « علي عبد الرازق بكتابه الإسلام وأصول الحكم » أن يخدع العرب والمصريين بما خدع به الإنجليز الهند ممثلاً في كتاب المستشرق مرجليوث الذي وجه إلى مسلمي الهند ، ولكن علماء المسلمين واجهوا محاولة على عبد الرازق وردوها بقوة وكشفوا فساد رأيه .

وردوا إلى الخلافة مفهومها الفقهي الأصيل .

يقول ضياء الدين الريس :

(١) إن علماء المسلمين قد اجتمعوا على أن الخلافة (أو الإمامة) فرض سياسي من فروض الدين بل هو الفرض الأول أو الأهم لأنه يتوقف عليه تنفيذ سائر الفروض وتحقيق المصالح العامة للمسلمين ولهذا سموا هذا المنصب (الإمامة العظمى) في مقابل إمامة الصلاة التي سميت الإمامة الصغرى .

وإن بقاء الخلافة تعني وجود نظام إسلامي يجمع شمل المسلمين مهما بلغ واقع حال دنيا النظام إلى مستوى محزن من الضعف بفعل الدسائس الاستعمارية .

(٢) إن الخلافة الإسلامية قد أقامها المسلمون بالفعل بعد وفاة النبي ﷺ حين انتخبوا أبا بكر خليفة لهم ثم وافقوا على خلافة عمر بن الخطاب

أمير المؤمنين ثم استمرت الخلافة بعد ذلك طوال العصور في الأمة الإسلامية فصارت محور تاريخهم وبقيت في صورة أو في أخرى أكثر من ألف وثلاثمائة عام حتى انتهت من تركيا .

وإن الهيئات الإسلامية التي قامت بعد سقوط الخلافة كلها تعاهدت على إحياء الخلافة .

ويقول دكتور مصطفى حلمي : كانت الأمة الإسلامية في ظل الخلافة تحس أنها كيان واحد متماسك لها خليفة يسوسها بشريعة الله . ولما كان الغرب يحمل للخلافة العثمانية الكراهية والحقد بسبب الحروب العديدة التي خاضتها معه فقد كان أثرها تلك الحملة المنظمة المدروسة المستهدفة للإساءة إليها مستغلة بعض الأخطاء لتشويه سمعتها وطمس دورها في أذهان الأجيال الجديدة المسلمة .

ونحن نعترف بكثير من المساوئ التي ترددت ولكن من جهة أخرى ينبغي الاعتراف بدورها في صد الحملات العسكرية الأوربية وحمايتها للأمة الإسلامية من الدول الاستعمارية الغربية التي ظلت تكيل الضربات للخلافة العثمانية في شكل موجات متتالية فرادى ومجتمعة وكأنها صممت على استئناف الحروب الصليبية التي اقترنت في الأذهان بالحقد والكراهية للإسلام وأهله .

ويكفي أن نذكر من محاسن هذا النظام أمراً واحداً لكي ترى ضرورته والحاجة إليه ، ذلك أن الأمة الإسلامية كانت في ظله تحس أنها كيان واحد متماسك ولابد لها من خليفة يسوسها بشريعة الله ولأول مرة في تاريخ هذه الأمة من خلافة أبي بكر الصديق يخلع عنها ثوب الخلافة ويطرد الخليفة بعد أن نزعت عنه السلطة وأصبح مجرد شخصية روحية أو

رمزية كما أراد الكماليون فمن مزايا الخلافة العثمانية أنها مكثت أكثر من خمسمائة عام وهى تحمل لواء الإسلام وتذود عن المقدسات وتحمي الديار وتحفظها وتحارب الاستعمار وتصد غاراته فكانت رغم كل شئ قوة الإسلام وشوكته حيث امتدت أطرافها حتى شملت آسيا وأفريقيا وأوربا .

ولقد عمد الغرب إلى إسقاط الخلافة الإسلامية لأنه وجد فيها رمز وحدة المسلمين وجمع شملهم ودليلاً على استمرار تاريخهم في ظل شعار سياسي واحد وأن بقاءها يعني الرباط الذي يبرر للمسلمين الاشتراك والمساهمة في الدفاع الدولي عن بلاد المسلمين وحقوقهم على حد قول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني .

وهنا يمكن القول أن مؤامرة إسقاط الخلافة الإسلامية هى أكبر أحداث القرن الرابع عشر الهجري وأن المؤامرة فتحت الباب أمام الغزو اليهودي واسعاً ومكنت التبشير من التوغل في الأقطار العربية والإسلامية وسجل (زويمر) ذلك في تقريره الذي كتبه بعد سقوط الخلافة وتمزق الدولة العثمانية .

✍

ويمر على سقوط الخلافة أكثر من ستين عاماً ثم يجتمع مؤتمر في لندن سنة ١٩٨٨ تحت اسم الخلافة أعدته جمعية الطلبة المسلمين جمع كل الفئات الإسلامية من الناطقين بالعربية والإنجليزية من غير العرب حيث حضره ثلاثة آلاف اسمهم الغرباء .

يقول الأستاذ عبد الستار سعيد : عقد المؤتمر في ذروة الأمل الإسلامي فلا عجب فهم أبناء محمد ﷺ يراودهم نفس الأمر الذي كان ﷺ يبشر به المستضعفين من أصحابه بوراثه كسرى وقيصر والتمكين في

الأرض إن أحسنوا الإسلام لرب العالمين .

وقد يراه البعض (أمر عودة الخلافة) ضرباً من الأحلام ويراه المؤمنون من حقائق الغد ومصداق الوعد الإلهي .

لقد سقطت الخلافة بتخطيط حقود وتدبير طويل ولا تقوم إلا بطول العمل وحميل الصبر والتوكل على الله والتزام الإسلام بشموله وتمامه وكماله .

ومن المفارقات أن يعقد هذا المؤتمر عن الخلافة على الأرض الانجليزية التي تولت كبر هذه الحرب الضروس ضد الخلافة والكيد الدائب لها والتحريض الخبيث عليها حتى انتهت إلى سقوطها على يد عدو الترك والإسلام ١٩٢٢ بعد أن تقاسمت هى وفرنسا وروسيا أملاكها بعد الحرب العالمية الأولى .

بل أن المستشرقين الإنجليز هم الذين لقنوا الفكر المعاصر كل الدعايات الكاذبة والتلفيقات المشوهة لتاريخ الخلافة وخاصة السلطان عبد الحميد - رحمه الله - الذي وقف موقفاً صارماً ضد أطماع اليهود في فلسطين .

ولا تزال الببغاوات في بلادنا تردد هذه الأكاذيب وهذا أبشع ألوان الغزو الفكري (يقصد ما كتبه مرجليوث ونقله علي عبد الرازق) .

✍

لقد فرضت العلمانية على تركيا كثمن للتسوية في الحرب العالمية الأولى وبعد انتصار الحلفاء ، لإنهاء الخلافة الإسلامية والقصد هو فصل الدولة عن الإسلام وإلغاء الخلافة كأداة تجمع للمسلمين عرباً وعجماً على

السواء ، وكان الظن أن يترتب على إلغاء الخلافة تمزق المسلمين إلى عرب وعجم وعزل العرب عن المسلمين وإقامة الصراع معهم وتعميق الخلافات وإحياء تاريخها القديم السابق للإسلام والاهتمام بالعاميات وإضعاف الفحصى لغة القران لعزل الناس عن وحدة الفكر مع إقامة القومية على غير الإسلام .

ومن ناحية أخرى عزل تركيا عن العالم الإسلام والتراث الإسلامي بلغتها المكتوبة بالحروف اللاتينية بحيث تكون أجيالها القادمة مبتورة الصلة بالإسلام والعرب معاً وبذلك تصبح قريبة من الغرب بعيدة عن العرب والمسلمين .

ولكن التجربة فشلت تماماً ، وبدأ المد الإسلامي من جديد يصحح في بطء كل الأخطاء القديمة .

✍

لا ريب أن إسقاط النفوذ الأجنبي للخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ كان حدثاً خطيراً ما زال في حاجة إلى دراسة واسعة وتقييم كامل وقد جاء إلغاء الخلافة في أعقاب رفض السلطان عبد الحميد بيع فلسطين لليهود وقد ظهر التهديد واضحاً في لهجة الزعيم اليهودي قراصو رئيس المحفل الماسوني في سالونيك بقوله : للسلطان : سترى كم يكلفك هذا الرفض .

✍

الفصل الرابع

الوحدة الإسلامية

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

كانت الوحدة الإسلامية الجامعة هى الهدف الأكبر للمؤامرة التي رسمها الغرب من أجل تفكيك الدول الإسلامية من ناحية ، وتزييف وجهتها من ناحية أخرى ، وكانت الدولة العثمانية هى الحجر الأول والخلافة هى الحجر الثاني ثم تأتي بعد ذلك صيحات القوميات والوطنيات والإقليميات التي تعتمد على كتابة تاريخ جزئي لكل قطر من الأقطار يستعلي فيه بتراثه القديم قبل الإسلام وينشأ الإعجاب بالفرعونية والآشورية والبابلية والزنجية والبربرية وتقام المهرجانات حول إحياء الأساطير القديمة : أمثال جلجامش وأدونيس وباخوس وغيرها ، وبذلك تتحقق إذابة هذه الأمة الإسلامية في الكائنات القديمة والوثنية غير أن الفشل قد لحق بهذه التجربة كلها إذ تبين أنه لا توجد ثقافة مكتوبة ولا تراث شعبي لهذه الدعوات القديمة ، فضلاً عن التاريخ الذي أعلن في وضوح أن هذه كلها موجات عربية أساساً خرجت من قلب الجزيرة العربية وانداحت في المنطقة من شرقها إلى غربها .

قال صمويل زويمر زعيم المبشرين المنطقة الإسلامية : (إن انتصار الاستعمار الحقيقي هو هدم الوحدة الإسلامية واحلال القومية محلها وما علينا إلا أن ننفخ في بوق القومية فتنقاد لها الشعوب وهذا هو الانتصار العظيم) .

والحق أن زويمر في ضوء ما عرف عنه بعد وفاته - من أنه كان يهودياً - يعبر في هذا النص عن هدف خفي ، وهو إعلاء شأن القوميات حتى يمكن للصهيونية أن تدخل فيما بينها .

وقد يحقق للنفوذ الأجنبي مطمحه في غفلة من الوعي الإسلامي حيث عمل في دقة وتمكن على إسقاط مؤسسات الوحدة الوطنية : (الدولة

العثمانية والخلافة الإسلامية) وأقام جسراً فاصلاً بين أفريقيا وآسيا من عنصر آخر ليس من أهل المنطقة كما رسمت مقررات مؤتمر ١٩٠٧ وسرعان ما ظهرت جماعة الكارهين للوحدة الإسلامية ممثلة في كمال اتاتورك وجماعة الاتحاديين في تركيا وفي لطفي السيد الذي دعا إلى المصرية ثم في تلاميذه وفي مقدمتهم طه حسين ، وعني سعد زغلول بالدعوة إلى العلمانية ثم أخذت هذه الجماعات تعلي من شأن الفرعونية وحفريات الأهرام وتوت عنخ آمون وغيرها بهدف حجب العصر الإسلامي ، ثم جاءت دعوة القومية العربية مجردة من مضمونها الإسلامي ومفهومها الجامع المرتبط بالإسلام يحمل لوائها ساطع الحصري وميشيل عفلق وما تزال لهذه المدرسة امتداداتها في فرعونية لويس عوض وقومية محمد حسنين هيكل وفي مجموعة من الكارهين للوحدة الإسلامية والشريعة الإسلامية والدولة العثمانية والمماليك (أولئك الذين حرروا البلاد من التتار والصليبين) ويحاول هؤلاء الكارهون للوحدة الإسلامية تصوير الحروب الصليبية بأنها صراع بين العرب وأوربا ، محاولين خداع المسلمين عن الخصومة العنيفة التي حملت لواءها قوى الغرب المختلفة : عسكرية ومسيحية في مواجهة زحف الإسلام لإيقاف تقدمه ولضربه في معاقله ، فكانت هذه الحملات التي استمرت قرنين كاملين والتي انتهت إلى هزيمة الغرب .

ولكن هل قضى ذلك كله على عقيدة الوحدة الإسلامية الجامعة في نفوس المسلمين : الحقيقة أن هذه المؤامرة لم تحقق إلا التمزق السياسي الذي فرضه النفوذ الأجنبي حين سيطر على هذه المنطقة وقسمها بين فرنسا وانجلترا وإيطاليا وأقام فيها نظماً تعمل على دعم الإقليمية والقومية والكيانات الصغيرة التي حاولت أن تعتمد في تاريخها على إحياء

دعوات العنصرية العرقية القديمة .

(٢)

إنه بالمراجعة الواسعة لوقائع التاريخ الإسلامي في العصر الحديث يمكن القول بأن الوحدة الإسلامية كانت هى الهدف الأكبر الذي ركز النفوذ الأجنبي على تمزيقه والقضاء عليه بوصفه العروة الوثقي التي إذا انفكت انتثر جماع هذه الأمة التي تمتد من أرخبيل الملايو إلى نهر الوار ، في منطقة خطيرة هى قلب العالم من حيث حركة التجارة العالمية ومصدر الثروة .

كان الهدف - في الحقيقة - هو احتواء المسلمين وصهرهم في بوتقة الغرب وإخراجهم من قيمهم حتى يفقدون ذاتيتهم تماماً وكان أخطر ما حققه النفوذ الأجنبي بعد إسقاط الخلافة هو غرس عنصر غريب بين قارتي آسيا وأفريقيا حتى يحال دون قيام وحدة إسلامية جامعة على نفس الأسس التي قامت عليها الوحدات السياسة في العالم الحديث ومن ثم كان الكيان الإسرائيلي هو رأس الجسر الذي أراد النفوذ الأجنبي إقامته واستدامته حتى لا يستطيع المسلمون مهما وصلوا به من الجهد والعمل لإقامة وحدتهم تحقيق ذلك .

وعندما ركز الغرب على هذا الهدف وضع له مخططاً خطيراً بحيث لا يستطيع أن يفلت المسلمون منه - على الأقل في الوقت الحاضر - وهو مكون من عدة عناصر متكاملة :

أولاً : السيطرة الكاملة على الثقافة بحيث لا تفلت منها الأجيال المتصدرة للسيادة والقيادة حتى تظل على ولائها للغرب والإعجاب به والنظر إلى مفاهيم الإسلام على أنها تراث قديم أو مأثورات والاعتقاد بأن

الإسلام دين عبادة لا دين حكم .

وفي هذا المجال جرى : (١) ضرب اللغة العربية وإحياء اللهجات وتأكيد سيطرة اللغات الأجنبية (٢) إحياء الخلافات القبلية والسياسية والدينية (٣) احتواء المسلمين داخل دائرة الثقافات الغربية (٤) الحملة على القيم الإسلامية والتشكيك فيها وامتهانها (٥) تمزيق جبهة المقاومة والنضال وفصل الحركة الوطنية عن الحركة الإسلامية .

ثانياً : السيطرة على الصحافة والإعلام والثقافة حتى تظل عملية البث الخطيرة متجهة إلى هدم قيمة الإسلام والتشكيك فيها .

ثالثاً : الحيلولة دون الالتقاء بين الأقطار الإسلامية أو إقامة وحدات سياسية بينها وبين البعض الآخر ، وإثارة روح التآمر والدس بين بعضها البعض ، حتى تظل على خوف ووجل وحتى لا تلتئم بالثقافة في وحدة جديدة .

رابعاً : إعلاء قيمة الإقليمية عن طريق قضايا تاريخية تافهه ليست إلا جزءاً من تاريخ الإسلام ولكنها تعرض على أنها تاريخ إقليمي مستقل فضلاً عن إحياء تاريخ ما قبل الإسلام في هذه الأقطار .

✍

ولقد كان القضاء على الوحدة الفكرية التي هى أساس الوحدة السياسية هو الهدف الأكبر وذلك بتزييف مفاهيم الإسلام الكبرى وإثارة الشبهات حول أسسه الهامة : الجهاد ، مفهوم النصر ، نظرية تحديد نسل المسلمين ، مسألة المرأة ، توسيع دائرة الفوارق المحلية والإقليمية ، إحياء الفرعونية والآشورية والبابلية الخ .

وكذلك محاولة تقديم فكر المسلمين إليهم عن طريق زائف وخاصة التاريخ الإسلامي ، ومفاهيم اللغة ، ونظم الحكم وفي سبيل تحقيق ذلك قدم الغرب إلى المسلمين : العلمانية ، القومية ، الاشتراكية ، الليبرالية ، ومحاصرة المد الإسلامي ، وفرض النموذج الغربي فضلاً عن عدم تمكين المسلمين من الوصول إلى الكفاية القتالية التي تمكنهم من القضاء على إسرائيل وذلك في دائرة قولة مسمومة ، وهى (تفوق إسرائيل العسكري على العرب مجتمعين) .

وهى قولة يجب أن يسعى العرب لتحطيمها

✍

ومن هنا فقد كان ضرورياً في سبيل تحقيق هذا الهدف العمل على كشف زيف تلك النظريات المطروحة في أفق الثقافة الإسلامية والعربية التي قدمها (التبشير – الاستشراق – التغريب – الشعوبية – المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية -- الماركسيه) .

(١) وفي مقدمتها ما يوجه إلى اللغة العربية من شبهات ومحاولات لإحياء العاميات .

(٢) ما يوجه إلى الشريعة الإسلامية من تجديات بالقانون الوضعي والأيدلوجيات الغربية الوافدة .

(٣) ما يطرح في أفق الفكر الإسلامي من فلسفات حديثه وإحياء للفلسفات القديمة سواء الشرقية الغنوصية أم الغربية الهيلينية .

(٤) ما يقدم للمسلمين تحت أسماء الأنثربولوجيا ومقارنات الأديان ودراسة الأجناس البشرية وغيرها وإعلاء شأن العنصريات والقوميات

الضيقة والإقليميات .

(٥) ما يتصل بالعلمانية وإيقاع الصراع بين الدين والعلم .

(٦) ما يثيره الصراع بين العروبة والإسلام مع أن الإسلام هو وعاء العروبة والعرب مادة الإسلام .

(٧) ما يتصل بأصالة الفرق والمذاهب القديمة وخلق فكر لها يحاول الصراع من داخل الفكر الإسلامي الجامع المتكامل تحت أسماء مختلفة .

✍

الفصل الخامس

القومية والعروبة

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

يجب أن يكون واضحاً تماماً في تفكير المثقف المسلم ذلك الفارق العميق بين القومية والعروبة حيث اختلط هذان المفهومان من أجل التضليل والتمويه خدمة للهدف التغريبي الذي يرمي إلى خداع المسلمين عن حقائق الأمور .

فالقومية أساساً هو مصطلح غربي نشأ في الغرب وفي إطار الصراع الذي عرفته أوربا بين الدين (المسيحية) وبين الوجود القومي ، أو الوطني وقد حاول بعض الكتاب إدخال هذا المصطلح إلى أفق الفكر الإسلامي في موازاة مصطلح العروبة ، ولكن الأمر يختلف في الحقيقة اختلافاً واسعاً وعميقاً لارتباط العروبة بالإسلام نشأة ووجوداً على نحو مختلف عن ارتباط القومية بالمسيحية في الغرب .

فالقومية (أطروحة غربية) أساساً ظهرت على أثر تمزق وحدة المجتمع الأوربي النصراني حين ظهرت دعوة لوثر وكلفن ، تحت اسم (البروتستانتية) وكانت وراءها قوي تهدف إلى تدمير النظام النصراني الاجتماعي الذي كان يقوم في مواجهة (الجيتو) اليهودي والقوانين التي أصدرتها الكنيسة لعزل اليهود وتمييزهم ومنعهم من السيطرة على المراكز الأساسية الكبرى في المجتمع الأوربي ، ومنذ بدأت حركة البروتستانتية بدأت معها رياح القومية التي ترمى إلى إعلاء شأن الوطن والقوم وإحلالها محل الدين وذلك لإخفاء الفرق بين النصراني واليهودي وهو ماسعت إليه اليهودية من خلال ماأطلق عليه عصر التنوير وجماعة الموسوعة (روسو وديدرو) ومن قبلهم فولتير والتي حققت غايتها بالثورة الفرنسية ومن ثم تداعت الصبغة الدينية النصرانية وعلت الصبغة القومية وقفز اليهود إلى مناصب القيادة الفكرية والأدبية في المجتمع الغربي ثم إلى مناصب السيادة في البرلمانات الأوربية .

وقد تحدث ساطع الحصري كثيراً عن ظهور القوميات في أوربا وتأثر بالنزعة القومية الأوربية التي واجهت الوحدة النصرانية الكبرى والتي كانت تحجبهم عن امتلاك النفوذ والسيطرة في المجتمع الأوربي والتي وضعت عدداً من القوانين والتقاليد للفصل بينهم وبين النصارى في أمور الزواج والتعامل والتي حجبتهم في (الجيتو) ومن ثم كانت القومية في أوربا معارضة للدين - أي النصرانية - وعملاً لهزيمة نفوذه السياسي كما كانت القومية الألمانية والخروج من الكاثوليكية عاملاً من عوامل المقاومة لسيطرة الإمبراطورية الرومانية بعد أن ارتبطت الكنائس البروتستانتية بالقوميات وهذا الذي حدث في الغرب النصراني مختلف تماماً عن العرب والإسلام وهذا هو ماتأثر به دعاة القومية وفي مقدمتهم ساطع الحصري وأقاموا عليه نظريتهم الوافدة في القومية العربية التي سرعان ماتهاوت وسقطت لأنها لم تعتمد على الأصالة الحقيقية في فهم العلاقة بين النصرانية والقومية من ناحية ، وبين الإسلام والعرب من ناحية أخرى فـفكرة القومية إنما قدمت من الخارج ، من أوربا وأول من نادى بها نابليون في محاولة لإبعاد مصر والشام عن الدولة العثمانية وإشعار العرب بأنهم مختلفون عن الأتراك وجاء محمد على وإبراهيم ورفعا نفس الشعار ثم حمل لواء الدعوة بعد هذا المسيحيون المارون في لبنان - بإيعاز من القوى الغربية والإرساليات - ابتغاء تقويض الخلافة الإسلامية تحت شعارات ماكرة فكان اليهود والنصارى بذلك هم أول من رفع كل هذه الشعارات المطروحة على الساحة اليوم : القومية والاشتراكية والثورية والعلمانية وكلها شعارات طرحت لضرب الإسلام وقد فشلت جميعها وأثبت الجسم الإسلامي قدرته على رفض العنصر الغريب .

وقد ساقت هذه المذاهب العرب إلى هزيمة ١٩٤٨ وهزيمة ١٩٦٧

وسقوط القدس وضياع فلسطين وارتبطت بالحكم الاستبدادي العسكري .

ولقد عمد بعض القوميين إلى محاولة تفسير التاريخ الإسلامي من جديد تفسيراً يخدم مفهوم القومية الوافد تقليداً للخطوات التي سار عليها ضياء كوك ألب في تركيا في شأن الطورانية (والقومية التركية) وفي نفس الوقت ظهرت القومية الفارسية القائمة على مفاهيم المجوس والزرادشتيه وإحياء أمجاد فارس قبل الإسلام .

وأكبر أخطاء دعاة القومية مفهومهم للإسلام مقارنة بمفهومهم للدين بصفة عامة على النحو الذي يعرفه الغرب (اللاهوت) فدعاة القومية متفقون على أن الإسلام دين ولذلك يجب استبعاده إيماناً بنظرية فصل الدين عن الدولة .

والواقع أن الإسلام ليس ديناً - بمفهوم الغرب - بل هو منهج حياة ونظام مجتمع وهو يحمل مفهوماً يربط بين الروح والمادة ويجمع كل القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومن هنا فإن العروبة لم تكن إلا واحدة من مكوناته كما أنه لا خلاف بينه وبين العلم لأن العلم واحد من مكوناته .

إن فكرة فصل الدين عن الدولة في الغرب نشأت نتيجة ظهور سيطرة الكنيسة على الحياة السياسية والاقتصادية أما تاريخ الإسلام فإنه لم يشهد قط أي صراع بين رجال الدين ورجال الحكم على مدى تاريخه كله إذ لم يكن في المجتمع أصلاً فئة مميزة تدعى رجال دين ، والإسلام لايفرق بين الدين كعباده والدولة كحكم بل يجعلهما سبباً لعلة واحدة هي إظهار الحق : (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) فلزوم التمكين في الأرض بالحكم والسلطان والدولة غايته إقامة أمر الله .

كذلك يخطئ الذين قالوا : إن الدين عنصر والقومية مركب ، ولايقول هذا رجل يؤمن بالإسلام على حقيقته ، وإنما هذا هو الفهم اللاهوتي الغربي للدين وهو بالقطع ليس الفهم الإسلامي الصحيح ، كذلك فإن العرب لم يكن لهم وجود حقيقي قبل الإسلام ، وإنما كانوا قبائل متفرقة فالإسلام هو الذي شكل لهم وجودهم القومي ومن المستحيل أن يصدق أحد أن القومية تشمل الإسلام وتحتويه فهذه أفكار مغرضة ثبت فسادها .

قال محمد إقبال : إن الإنسانية لاتستريح أبداً مادامت تسودها نظرية القومية المشئومة التي تقطعها إرباً إرباً بحيث لايكاد الصدع يلتئم فضلاً عن أن القومية تقيم الحواجز ضد تنقل المنتجات والأموال وازدهار الصناعات .

وهنا يتأكد لنا فساد نظريتين غربيتين وافدتين :

نظرية القومية ، ونظرية الدين حيث تختلفان عن العروبة وعن الإسلام ، فالعلاقة بين الإسلام والعرب تختلف عن العلاقة بين الأديان والقوميات أو بين المسجد والقومية الغربية ، ذلك أن الإسلام هو الذي نزل في العرب ولم يكن للعرب قبله كيان موحد أو جامع وإنما كان العرب به حملة الرسالة للعالمين ولذلك كانت قاعدته المساواة بين الناس جميعاً والأفضلية بالتقوى وذلك وفق الآية الكريمة من القرآن : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات .

فالإسلام هو الذي وضع العرب في الأفق العالمي وحماهم من عصبية الجاهلية القبلية حين وكل إليهم حمل رسالته إلى الآفاق .

وقد استطاعت الدعوة إلى القومية (المفرغة من مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام) على النحو الوافد من الغرب والذي حمل لواءه ساطع الحصري وميشيل عفلق أن تفتح ثغرة واسعة في الفكر الإسلامي انقادت له قوى كثيرة وحشدت له قيادات وموارد وانتهت التجربة بالفشل حيث أن العمل لم يكن موضوعاً في إطاره الصحيح ، فقد أريد له أن يكون صورة من الفكر القومي الغربي في استبعاد الدين أو أن يكون بديلاً عن الدين كما ربط بالعلمانية من ناحية وبالماركسية من ناحية أخرى وجرت محاولته فى حركة عاصفة انتهت بنكسة ١٩٦٧ التي أدت إلى سقوط القدس في يد اليهود وأعلنت فشل التجربة الماركسية التي أخذت بها بعض البلاد العربية .

وكانت التجربة الغربية قد انتهت ١٩٤٧ بسقوط فلسطين وهزيمة النظام الليبرالي مما جعل منظراً كبيراً في الفكر السياسي هو الدكتور حامد ربيع يقول : (إن الفكر القومي في العالم العربي قد عفا عليه الزمن) .

الفصل السادس

العروبة والإسلام

أنور الجندي

بيت الحكمة - ص.ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

إن الصلة بين العروبة والإسلام هي صلة عضوية : فقد أعطى الإسلام العروبة حقيقتها وسمتها وطابعها الحقيقي من خلال مفهومة الجامع المتكامل الذي تجد العروبة فيه ترابطها وامتزاجها ولاتجد فرقتها ولاخلافها ولاصراعها على النحو الذي تعرفه القوميات مع غير الإسلام من أديان .

أما النظرة العلمانية القائمة على فهم الإسلام على أنه دين عبادي - لاهوتي - هذه النظرة القاصرة جاءت نتيجة عدم وضوح الرؤية فالإسلام في هذا يختلف عن مفهوم مصطلح (دين) الذي عرفه الغرب واستمد من المسيحية التي لم تكن إلا آخر رسالات بني إسرائيل ولم تكن ديناً مستقلاً بل كانت مرتبطة بشريعة التوراة . وقد جاءت المسيحية والتوراة جميعاً لامة واحدة ، أما الإسلام فقد جاء للبشرية كلها وللإنسانية عامة لا في عصر واحد واكن في جميع العصور .

فهو دين عالمي إنساني تحقق به تكامل العناصر والقيم فقضى أساساً على مشكلتين كبيرتين في الفكر الغربي (١) العلاقة بين القومية والدين (٢) العلاقة بين الدين والعلم .

ولكن خطة الاستعمار والصهيونية كانت دائماً ترمى إلى التفريق بين العرب وبين المسلمين ومحاربة الإسلام باسم العروبة ومحاربة العروبة باسم الإسلام .

أما الإسلام في حقيقته كدين عالمي خاتم - وهو في نفس الوقت منهج حياة ونظام مجتمع - فإنه قد أزال التناقض تماماً بين العروبة والإسلام وجعل الصلة بين العروبة والإسلام صلة عضوية فالعروبة لم تعلن إلا بالإسلام ، والإسلام لم ينتشر إلا على يد العرب والعرب قادة الإسلام .

ويرى الدكتور إحسان هندي أن مفهوم العربي غير المسلم هو أنه لن يكون عربياً بالفعل إلا إذا نظر إلى القرآن على أنه قدس أقداس العروبة لذا فهو الذي صان العربية من مصير كمصير اللغة اللاتينية ووقى الأمة الواحدة من أن تصبح عشرين أمه وأن خمسة عشر مليوناً من المسيحيين العرب ناصروا المسلمين في معاركهم الأولى مع الروم وغيرهم ، كذلك فإن المسلم غير العربي يؤمن بالنبي محمد ﷺ العربي وبالقرآن العربي وبالكعبة الشريفة في أرض العرب وبأن انطلاقة الإسلام الأولى كانت على يد العرب وبهم وأن الدعوة الإسلامية هي التي نقلت العرب من حال الجاهلية إلى ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

ولكن بعض دعاة القومية ينسون هذه الوجهة تماماً ويتنكرون لها وينسون أن الإسلام وحدة هو الذي وحد العرب وأن أي وحدة لاتقوم على أساسه فإن مصيرها الشقاق والتمزق .

ومن هنا فإن الدعوة – التي حملت لواءها بعض الأحزاب – إلى القومية العربية بعد تجريدها من الإسلام وإلحاقها بركب العلمانية كانت شؤماً على أصحابها ، فإن النعرة القومية إذا أثيرت وبدأها العربي أعرف الناس بالإسلام وأقربهم إلى فهمه – على حد قول الدكتور فاروق عبد السلام – كان من حق صاحب كل ذي قومية أخرى – وبالتالي – أن يتعصب لقوميته هو الآخر دون حرج وهذا ماحدث بالفعل فقد رفع العرب شعار القومية العربية وطالبوا بالانفصال عن تركيا ورفع مصطفى كمال أتاتورك هو الآخر شعار القومية الطورانية ومنع الأذان والكتابة بلغة القرآن وفرض كتابة التركية بالحروف اللاتينية وهذا في ذاته يشكل انحساراً لانتشار لغة العرب وكان شاه إيران قد رفع شعار القومية الفارسية والخليج الفارسي إحياء لذكرى قورش العظيم وحارب الأكراد

وقوميتهم الكردية .

ومن ناحية أخرى فإن سيد المرسلين النبي العربي الأمين هو الذي أمرنا شرعاً وعقيدة بإطفاء جذوة النعرة القومية كأصل من أصول عقيدة الإسلام الإنسانية والعالمية وكمبدأ خاص يختص به نبي الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام عن سائر من سبقه من الأنبياء والمرسلين .

يقول الشيخ محمود شلتوت في كتابة (الإسلام عقيدة وشريعة) : إن رسالة خاتم الأنبياء رسالة عامة إلى الناس جميعاً ولذلك لم يذكره الحق في كتابه مقروناً بكلمة قوم أو منسوباً لقوم دون قوم بينما ذكر سبحانه سائر الرسل كلاً منهم منسوباً إلى لقومه خاصه :

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، والى عاد أخاهم هودا فقال ياقوم ، ولوطاً إذ قال لقومه ، ورسولاً إلى بني إسرائيل ﴾ .

وقد فصل الإمام الشهيد حسن البنا العلاقة بين القوى الثلاث (الوطنية - القومية - الإسلام) حيث قال :

إن رابطة العقيدة هي أقدس من رابطة الدم ورابطة الأرض وإن فكرة القومية تذوب أمام فكرة الأخوة الإسلامية التي بثها القرآن الكريم في نفوس من يتبعونه جميعاً ولكن إذا كانت (الوطنية) حباً للوطن ، الذي ولدنا فيه واختصصنا له بالخدمة فإن الإسلام يختصها بل ويعتبرها جزءاً من منظومة فكرة السياسي ، فقط يحذر أن تكون جذورها قاصرة على الإقليم الضيق الذي ولد فيه الإسلام .

وإذا كانت الوطنية هي حب هذه الأرض وألفتها والحنين إليها والعطف نحوها فذلك أمر مركوز في فطر النفوس من جهه وما أمر به الإسلام من جهة أخرى ، فقط يطلب منا الإسلام ألا نقف بحدودها عند حدود الإقليم الصغير الذي ولدنا فيه فلقد وسع الإسلام حدود الوطن ليشمل القطر الخاص ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية ثم يرتقي إلى أجزاء الإمبراطورية الإسلامية الأخرى ثم يسمو حتى يشمل الدنيا جميعاً وبذلك يكون الإسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة بما فيه الخير كل الخير للإنسانية جميعاً .

والمثل التطبيقي لهذه الحلقات والدوائر التي تبدأ بالدائرة الوطنية. والدائرة العربية فالدائرة الإسلامية :

إن مصر قطعة من أرض الإسلام وزعيمة أممه وفي المقدمة من دول الإسلام وشئونه .

المصرية أو القومية لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها في الكفاح والنضال . إننا مخلصون لهذا الوطن الحبيب ، عاملون له ، مجاهدون في سبيل خيرة وسنظل كذلك ماحيينا معتقدين إن هذه هي الحلقة الأولى من سلسلة النهضة المنشودة وأنها جزء من الوطن العربي العام ، وإننا حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام ، والعروبة لها في دعوتنا كذلك مكانها البارز وحظها الوافر فالعرب هم أمة الإسلام الأولى وشعبه المتحضر وفق مقالة ﷺ (إذا ذل العرب ذل الإسلام) ولن ينهض الإسلام بغير إجماع كل الشعوب العربية ونهضتها ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للإسلام ولخير العالم كله والقرآن عربي وهو أساس هذا الدين وركن الصلاة أفضل القربات إلى الله وتلك هي الوسيلة

العملية إلى وحدة اللسان بعد وحدة الإيمان ، فالعرب هم عصبة الإسلام وحراسه ، ومن هنا كانت وحدة العرب لابد منها لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأيدها ومناصرتها . الحلقة الأولى (الوطنية) والحلقة الثانية (الوحدة العربية) أما الجامعة الإسلامية فهي الحلقة الكبرى والسياج الكامل للوطن الإسلامي العام ، لاتعارض بين هذه الوحدات بهذا الاعتبار فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها .

فالإسلام يعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة ويعتبر الوطن الإسلامي وطناً واحداً ولايتنكر للوطنية ولا القومية بل يرى الجامعة الإسلامية ثمرة تلي الدائرة القومية التي هي الأخرى دائرة الوطن الذي نشأ فيه المسلم فقط ينكر الإسلام ويستنكر القومية إذا علت العصبية الكاذبة والفخر الكاذب ، أما إذا عنت الاعتزاز بالمزايا والتاريخ فذلك مما تحتاج إليه الأمم الناهضة عندما تواجه التحديات التي تحول بينها وبين النهوض .

وهكذا نجد أن التجربة فشلت لأن الذين قاموا بالدعوة إلى القومية لم يؤمنوا بتكامل المراحل والحلقات ولم يكونوا ينظرون إلى العروبة على أنها حلقة من حلقات الوحدة الإسلامية الجامعة وإنما جعلوها قيمة قائمة بنفسها ، بل غلوا في ذلك غلواً كثيراً حين جعلوها أساساً وجعلوا الإسلام حلقة منها فضلاً عن أنهم بالغوا مبالغة خطيرة في إعلاء القومية إعلاءً بلغ بهم إلى الحد الذي أنكره الإسلام من العصبية والعنصرية واستغلاء العرق والدم الذي جاء الإسلام للقضاء عليه .

ومعنى ماجاء به الإمام الشهيد هو أن الإسلام هو أقدر الدعوات على إقامة العالمية الإنسانية .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : لقد ارتبطت العروبة بالإسلام منذ نشأتها ونمت وتطورت ونضجت داخل إطاره - دون أن يكون في ذلك تعارض مع أصول الأديان السماوية - الثابت المحدد وجعل لها شخصيتها المتميزة فإذا نحن حررناها من هذه القيم المسلم بها فالماديون سيدعون إلى الماركسية فيقع الخلاف بينهم وبين مخالفيهم الذين لايرتضون هذا المذهب أساساً لتنظيم المجتمع ويشتركون مع الليبرالية في السخرية من القيم الدينية فيقع الصراع بينها وبين الماديين والوجوديين وغيرهم ممن يتبعون كل ناعق .

وسيجد الذين يخافون على أمتهم وإسلامهم وحريتهم في ظل عروبة إسلامية أنهم أكثر خوفاً في ظل عروبة لادينية لأن الإسلام وحدة هو الضامن لمنع انحراف المسلمين نحو عصبية جهولة عمياء .

الخطر هو أن ينجم جيل من المسلمين يجهلون الإسلام في ظل العروبة اللادينية كما حدث في الحكم العثماني بعد عزل عبد الحميد أما غلاة القوميين من المسلمين الذين يلتقون مع المسيحيين في الدعوة إلى قومية لادينية فهم واقعون تحت تأثير ماتوهموه من أن النهضة الأوربية الحديثة كانت ثمرة للتمرد على الكنيسة ولتجريد الحكم من الصفة الدينية وهو وهم لايثبت على التمحيص ، فالحرية الدينية البروتستانتية التي تمردت على الكنيسة الكاثوليكية لم تخل من أصابع الصهيونية وكان همها الأول هدم الكنيسة الكاثوليكية لأنها كانت أكبر المؤسسات التي تناصب اليهود العداء ، والبروتستانت اليوم هم أشهر الطوائف المسيحية عطفا على الصهيونية وأكبرها مساندة لهم مادياً ومعنوياً .

كذلك فإنه لايوجد عند العرب . جهازان يتنازعان السلطة : ديني

وسياسي ولاتوجد سلطة دينية متحكمة كسلطة الكنيسة التي ثار عليها المسيحيون في نهاية القرون الوسطى .

فالنهضة الأوربية انتهت إلى تفتيت الجامعة الأوربية المسيحية وتقسيمها إلى دول شتى لكل منها لغتها الخاصة وقوميتها المستقلة ، أما الحركة العربية فهي تهدف إلى جمع العرب بعد أن فرقهم الاستعمار وتتمسك بالقيم العربية الجامعة لشملهم والتي هي وسيلة التواصل بينهم أفراداً وجماعات .

ومن ناحية أخرى فإن البلاد العربية ليس لها تاريخ في العروبة يسبق الإسلام بل أن عروبتها في الحقيقة تتأخر عن إسلامها ، هذه العروبة لم تجئها إلا عن طريق الإسلام وبسببه ذلك لأن الإسلام دعا المسلمين إلى أن يحبوا العرب ويلتفوا حول رايتهم ويتخذوا العربية لغة جامعة لشملهم (من أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم) حديث شريف .

ومن هنا فإن التفريق بين العروبة والإسلام اليوم لايستند على أساس فالإسلام هو الذي أعطى العرب لغتهم ووحدهم عليها وعلى القيم التي تضمنها كتابة وسنة رسوله فالتقت قلوبهم وعقولهم وأفئدتهم على مايحلون وما يحرمون ومايحبون ومايكرهون أ . هـ .

ولأن ساطع الحصري ومن تبع نظريته من العلمانيين الذين نشأوا في إطار مفاهيم الغرب اللادينية فإنه عجز عن فهم الفارق بين الدين في المسيحية وفي الإسلام .

ذلك أن أكبر المؤثرات التي شكلت فكر ساطع الحصري هو نشأته في محيط الاتحاديين الذين تربوا في المحافل الماسونية والمعروف أن

الدعوة إلى القومية العربية بدأت أول أمرها في معاهد الإرساليات التبشيرية بهدف فصل العرب عن الدولة العثمانية ومع أن ساطع الحصري عربي من اليمن ألا أنه يصدر عن كراهية عميقة للإسلام ، هي نفس كراهية الاتحاديين له لأنه تربى في أحضانهم .

وقد كان هدف فصل العرب عن الدولة العثمانية إسقاط (الوحدة الإسلامية) التي كان إسقاطها أكبر أهداف النفوذ الأجنبي والصهيونية ولذلك عمل على إحلال تيارين متصارعين بدلاً منه وهما : القومية والإقليمية وذلك حتى تتفسخ دولة الخلافة الجامعة .

وكانت الدولة العثمانية واقعة في مشاكل كبيرة من ضعف ومن زحف أوربا نحوها ومن وثوق بعض الخلفاء بغير المسلمين ولكن الحل لم يكن في إسقاطها وهدمها ومن هنا نشأت الدعوة إلى ماأطلق عليه (الخلافة العربية) وهي ليست من الإسلام في شئ تلك التي حمل لواءها الكواكبي الحلبي وشجع النفوذ الاستعمارى كل دعوة تعمل على تمزيق الجبهة الإسلامية .

ولاريب أن موقف ساطع الحصري من الدولة العثمانية يلقي ظلالاً كثيفة على تغيرات التاريخ العثماني وموقفه من الخلافة ومن الوحدة الإسلامية ومن علاقات الدولة العثمانية مع العرب ، كل هذا يخضع لعقيدة ساطع الحصري كواحد من الاتحاديين الذين نشأوا في المحافل الماسونية وتأثروا بمفهوم القومية المفرغ من الدين ، والفارق العميق بين مفهوم الدين ومفهوم الإسلام ويعترف ساطع الحصري بأن اللغة العربية هي التي حفظت مايطلق عليه اسم العروبة من التشتت والزوال ولو صدق لقال أنه (القرآن الكريم) ولاريب أن النظرة العلمانية إلى الإسلام المأخوذة من

تجارب البلقان والوحدة الألمانية والإيطالية وتطبيقات الاتحاديين في تركيا الذين عملوا على انتزاع بلادهم من الإسلام إلى القومية الطورانية ، كل هذا هو الذي دعا ساطع الحصري إلى أن يفهم الإسلام على أنه دين (لاهوتي) .

ومن ذلك عبارته التي يرددها دائماً (ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية) وهي عبارة كنسية ، فإن الإسلام دين وسياسة لم ينفكا ولم ينفصلا .

ومن أخطاء ساطع الحصري المترتبة على ذلك عجزه عن فهم الإسلام بوصفه ديناً عالمياً وأن المسلمين أمة واحدة .

كذلك فإنه يخطيء خطأ واضحاً في عجزه عن فهم ماهية اللغة العربية التي هي لغة ألف مليون مسلم في ثقافتهم وعباداتهم وأصول تفكيرهم ، وعجزه عن فهم ماهية التاريخ الذي هو تاريخ الإسلام والذي لايمكن فصله إلى تاريخ عربي وتاريخ فارسي وتاريخ تركي ، أو تاريخ إقليمي ، لكل بلد على حده وكذلك عجزه عن فهم أن الفكر وليس اللغة هو أساس وحدة الأمة .

ويعجز ساطع الحصري عن فهم الفارق بين اللغة اللاتينية التي تمزقت إلى لهجات فرنسية وألمانية وغيرها وبين اللغة العربية التي حفظها القرآن الكريم ، فالفارق بين اللاتينية والعربية واضح فبالرغم من أن اللغة اللاتينية حملت الإنجيل إلا أنها تفرقت إلى لهجات ، أما الإسلام فلم يحدث أن قامت الصراعات والحروب بين أهل مذاهبه ، وأن الإسلام حين ظهرت فيه المذاهب لم يتمزق إلى فرق تعتبر كل منها ديناً خاصاً ، كما يرى الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس ، بل كانت هي طبيعة الإسلام

في إثراء التشريع بتنوع الاجتهاد ابتغاء التيسير ورفع الحرج ، وحين انشطرت الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية ، ذهب كل شطر منها بمذهب خاص وارتبط بلغة خاصة .

ونتيجة رأيه في الدولة العثمانية الشك في خلافة ال عثمان ، وإنكار فضلهم في حماية العالم الإسلامي خلال أربعمائه عام ، ونقل آراء مبتسرة باطلة ومن ذلك قوله : إن الأحداث التي توالت من إقدام الأتراك على إلغاء الخلافة قد قضت على فكرة الخلافة الإسلامية القضاء المبرم وأبعدتها عن نطاق التفكير السياسي في جميع البلاد الإسلامية) .

وما كان لساطع الحصري أن يقرر ما لايعلم فالخلافة عنصر أصيل في برامج جميع الهيئات الإسلامية فضلاً عما وجهت به الفكرة من كتابات على كل مستوى وفي مقدمتها أطروحة الدكتور عبد الرزاق السنهوري عن عصبة الأمم الإسلامية وما عقد بعد ذلك من مؤتمرات وماقام به من مؤسسات للتضامن الإسلامي .

ملاحــــق

الفرعونية

إن الدعوة التي تستشرى على بعض الأقلام بإحياء الحديث عن الفرعونية هو أمر مضلل لأنها دعوة تجاوزها التاريخ وجاء الإسلام ليضع حداً فاصلاً بينه وبين مختلف الدعوات التي سبقته تحت عنوان واضح معروف هو (الانقطاع الحضاري)

فهذه الموجات المختلفة التي عبرت من قلب الجزيرة العربية وانداحت في المنطقة العربية من العراق والشام ومصر وأفريقيا ، قد انتهت تماماً بنزول القرآن الكريم .

بل أن الإسلام قطع بين هذه المنطقة وبين ألف سنة كاملة عاشتها هذه الشعوب في ظل الإمبراطورية الرومانية بما عرفت به من ظلم وفساد وماوقعت فيه من مظالم لمن أظلهم حكمها .

والعودة إلى الفرعونية تتعارض مع الإيمان بالأديان المنزلة والدين الخاتم ، لأنها تحمل جذور الوثنية القديمة وتراثها الضال الذي حطمته المسيحية المنزلة حين جاءت وقضى عليه الإسلام وليس هناك شئ مما يعجب في تاريخ الفرعونية أو تراث هذه الدعوات (فينيقية وآشورية وبابلية وغيرها) إلا وهو من أحد مصدرين : نبوة إبراهيم الحنيفية أو تراث الأديان المنزلة ، أو من ميراث العرب الذي كانت الفرعونية موجه من موجات الهجرة من الجزيرة العربية شأنها في ذلك شأن موجات الفينيقية وغيرها من الموجات التي تحاول أن تستعلى عازله نفسها عن مصدرها الأصيل .

إن هناك بعض من يروجون لما يسمى (الايتولوجا) وهي المصرية القديمة عقيدة وحياة ، وهذا مذهب ضال وضار بعد أن قطعت مصر تلك

المرحلة الواسعة على طريق الإسلام والعروبة وأصبح لايقضي أمر في هذا الوطن العربي أو العالم الإسلامي من دونها وهو ضال بعد أن قطعت الأمة أربعة عشر قرناً في طريق التوحيد وأصبح فكرها الإسلامي ولغتها العربية هي فكر المستوطنين جميعاً وتراثهم جميعاً وبعد أن ثبت بما لايدع مجالاً للشك لأصحاب الأهواء ممن حاولوا ذلك من المؤرخين أن هناك انقطاع حضاري لاسبيل إلى تجاوزه ، إلى ماوراء رسالة الأديان إلى الوثنية مرة أخرى ، وأن ماتبقى من شظايا قليلة الأهمية مما يحاولون بعثه وتجديده لايمكن أن يشكل تراثاً أو لغة أو ثقافة أو أي مظهر من مظاهر الارتباط أو ما يمكن أن يكون عاملاً من عوامل الإحياء .

ولقد جاءت المسيحية يوم جاءت رسالة من السماء لتهدم هذا التراث وقد حاربته ثلاثمائه عام وقدمت في سبيله ألوف الشهداء والضحايا لتقر كلمة الله الحقة التي جاء به سيدنا عيسى ، ثم جاء الإسلام فقضى على هذا التراث قضاء مبرماً فكيف يحق اليوم أن تجد هذه الصيحات التي تحاول أن تجدد هذا الماضي الوثني صداها .

ولقد حاولت الصهيونية التلمودية إحياء تراث الوثنية اليونانية في الغرب وهي تحاول اليوم هذه المحاولة بالنسبة للتراث الوثني في الشرق ، ومن عجب أن يجري إحياء تراث قديم انفصلت آثاره وأخباره ولم تعد له مأثورات أو ثقافة بينما تسحب ستائر الصمت على تراث حي يتدفق بالحياة متصل بأمجاد هذه الأمة في صورتها العربية والإسلامية .

وليس معنى هذا أن نغمض الطرف عن الآثار الفرعونية فهي مفخرة من مفاخر مصر لأن الذين قاموا بها كانوا يمثلون مرحلة ضخمة من مراحل الحضارة والتقدم الذي جاءت به أديان السماء ، وكانت الموجه

الفرعونية أصلاً صادرة عن جزيرة العرب كما أكدت أبحاث العلماء الأجانب والمصريين .

وقد أثبت القاموس الذي أعده أحمد كمال باشا أن أغلب الكلمات الفرعونية ذات أصل عربي ، ومثل هذا يقال في الموجات الفينيقية والآشورية والبابلية والبربرية ، وذلك تحقيق تاريخي استغرق أعواماً وأعواما حتى قيلت فيه كلمة الحق بعد أن استغلته مؤامرات الغزو الاستعماري والثقافي في الثلاثينات .

ويصور الأستاذ صفوت منصور دور الاحتضار للتاريخ الفرعوني الذي امتد أكثر من ألف سنة فيقول : توقفت علاقة مصر بالفرعونية منذ ألف سنة قبل الإسلام قطعت فى التاريخ حقبة كبيرة من الزمن طالت لألف سنة أو يزيد انتهى فيها التاريخ الفرعوني وتعرضت مصر خلاله إلى غزوات ضارية من الشمال والشرق وسادها عصر الاضمحلال الأخير ، كانت الأسرة السادسة والعشرين الفرعونية تمثل صحوة الموت للتاريخ الفرعوني لمصر ولكن لم يقدر لمصر أن يحكمها فراعنة آخرون بعد هذا التاريخ وطال دور الاحتضار الفرعوني لمدة أربعة أسرات تالية تخللها وأعقبها احتلال فارسي ويوناني وبطلمي وروماني .

ثم بعد ذلك جاء الإسلام لمصر بحق لا ادعاء وبأصالة لابهوى ، خاصة وأن مصر قد حظيت برسالة من رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والبلدان المجاورة ، ليدعوهم إلى الدخول في رسالة السماء التي بعث بها وأراد الله – تبارك وتعالى – أن تكون خاتم الرسالات قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بسنوات .

وهكذا امتد دور الاحتضار للتاريخ الفرعوني لمصر أكثر من ألف

سنة مما يؤكد توقف الامتداد التاريخي والحضاري للفراعنة ، تقول كتب التاريخ : صارت مصر القديمة في عصرنا الحاضر ملتقى الصراعات من عناصر متباينة أفقدتها استقلالها وبين ذلك أنها تعرضت للغزو الفارسي (٥٢٥ ق م) على يد قمبيز الذي عاث في الأرض فساداً وعامل أهلها بقسوة ووحشية وجاء بعده دارا (٥٧١ ق م) الذي حاول التودد للمصريين ليمحوا من أذهانهم قسوة قمبيز فرعا معابد الآلهة ، وتخلصت مصر من الاحتلال الفارسي ٤٩٠ (واستعانت في ذلك باليونانيين) ثم تعرضت لغزوهم مرة أخرى (٣٤٠ ق . م) ثم دخلها الإسكندر الأكبر (٣٣٢ ق . م) فدخلت بذلك في عصور السيطرة الأغريقية ومن بعده البطالمة والرومان وخلد اسمه بتأسيس مدينة الإسكندرية ، ولكن حكمه لم يدم طويلاً فقد توفى (٣٢٣ ق . م) فتنازع القواد ملكه فدخلت مصر تحت حكم البطالمة ثم حررتهم قوة أجنبية ٣١ ق . م ، ولكنها وقعت تحت الحكم الروماني وظلت في تبعيتهم ستة قرون .

ودخلت المسيحية مصر في عصر الرومان ، وفي عهد دقلديانوس حدث اضطهاد كبير للمسيحين حتى سمى عصره : عصر الشهداء وعاد القبط (أي سكان مصر) يرحبون بمن يفتح مصر غير الرومان ليخلصوهم من ذلك الإذلال والاضطهاد الذي طال واشتدت ضراوته إلى أن جاء المنقذ والانقاذ على يد الإسلام وقائده عمرو بن العاص ٦٤١ م فرحبوا بهم وساعدوهم على دخول البلاد ودخلت مصر من ذلك التاريخ في العهد الإسلامي الذي لم تتوقف مسيرته إلى اليوم على حين توقفت مسيرة التاريخ الفرعوني ٥٢٥ ق . م بعد احتلال الفرس لها على يد قمبيز ومائلاه من غزو أجنبي يوناني وبطلمي وروماني إلى ٦٤١ م حيث الفتح الإسلامي لمصر .

وهكذا قطع الامتداد الفرعوني لمصر بألف سنة قبل دخول الإسلام

نعم : لقد خضعت مصر والبلاد العربية للحكم الأجنبي نحو ألف سنة قبل الإسلام باستثناء جزيرة العرب ، وتعاقب على البلاد العربية الرومان والفرس واليونان في أدوار تاريخية ففرضوا قومياتهم وعقائدهم ولغاتهم ثم مضوا جميعاً ولم يتركوا قومية ولا لغة رومانية أو يونانية أو فارسية .

ثم جاء الإسلام فكان التحول الخطير الذي لايعرف له التاريخ مثيلاً فبعد ربع قرن من بدء التاريخ الإسلامي كانت مصر والشام والعراق قد انتهى تاريخها الروماني واليوناني والفارسي ، وبدأ تاريخها الإسلامي العربي ، فكان لقاؤه بقديمها الأصيل الذي تحدى الغزو الأجنبي الوافد وأرق الغزاة بثورات يعرفها تاريخنا القديم ، واستجابت للإسلام غير مكرهه فيه وارتضت لغة القرآن بديلاً عن السنتها القومية وشاركت في المد الكبير لحركة الفتوح الإسلامية .

ومن المشرق خرجت كتائب الفتح بلواء الإسلام إلى أقطار المغرب وفي هذه الكتائب عرب خلص من قحطان وعدنان ومستعربه من العراق والشام اتجهوا غرباً نحو أفريقيه والمغرب الأقصى حيث قبائل البربر التي قاومت ثمه ثم قبلت الإسلام بعد قليل .

وقد شهد التاريخ قبائل البربر التي عصيت على الغزاة من كل جنس ومله جنوداً ومجاهدين تحت لواء الإسلام وفي عشرة آلاف منهم وألفين من العرب المشاركة فتح طارق الأندلس وكسر جيش لزريق في موقعة وادي الرطراط الحاسمة عام ٩٢ أي بعد خمسين سنة من دخول عقبة بن نافع الفهري أفريقيه وتأسيس القيروان .

ومضى الغزاة البيزنطيون كما مضى من قبلهم الإغريق والرومان والوندال ولم يتركوا سوى أطلال تزار .

ويجمع المؤرخون على أن ماتركه الاحتلال الروماني الطويل – نحو ستة قرون – لم يصمد للفتح الإسلامي وأن اللاتينية التي بدا أنها سادت شمال أفريقيا والمغرب انتهت في النصف الثاني من القرن الهجري الأول .

لم يبق من الفرعونية إلا الهياكل والقبور والتماثيل وهي واحدة من عوامل التشكيك في هوية مصر الإسلامية وطريق مستقبلها وهي دعوة مسمومة حمل لواءها لويس عوض وتوفيق الحكيم الذي دعا إلى أن تكون مصر هي فندق العالم أو أنها تنتمي إلى بحر أبيض لاتيني ولقد كان الموارنة واليهود أكثر من غذّا هذه الحركات واستجاب لتوجيهات الاستعمار بشأنها على أساس أن العداء للعروبة يتضمن العداء للإسلام أمثال ناصيف البازجي وبطرس البستاني ثم ميشيل عفلق ، والإسلام رسالة عالمية – وليس ديناً قومياً كما يفترى الكاهن لويس عوض – ضمت صلاح الدين الكردي والمماليك والأتراك والفرس ، والهنود ، كل هؤلاء الذين يقرأون القرآن العربي ، ويصلون إلى قبلة واحدة ، وبهؤلاء نجح العرب في حطين وعين جالوت .

حاشية : *تجددت كلمات غير مسئولة عن التراث الفرعوني في سبيل خدمة هدف السياحة مما يختلف تماماً مع واقع التاريخ ففي تقدير المؤرخين أن الفن القبطي تراث مأخوذ من المعابد الرومانية والفرعونية ، وهناك ترابط وثيق بين العصر القبطي*

والنصراني والمسيحي واللغة الهيروغليفية .

ولقد كان مفهوم الفراعنة (الإمبراطور الاله) على النحو الذي كشف عنه القرآن الكريم في حديثه عن فرعون موسى وظلمه وطغيانه واستعلائه وقوله (أنا ربكم الأعلى) فكيف يقال أن الفرعون هو راعي الخير الذي يحافظ على انتظام الظواهر الطبيعية حتى الفيضان ، حتى قالت إحدى الصحفيات : أنقذنا ياآمون ! أن الذي يحافظ على انتظام الظواهر الطبيعية في الحقيقة هو الله - تبارك وتعالى - وليس الفرعون ولا أي حاكم .

الانتماء والهوية

يقول الدكتور حسن الطلياوي : إن العلاقة بين الانتماء والهوية هي علاقة عضوية فإذا تحددت هوية الإنسان أصبح انتمائه مسألة تلقائية ، بمعنى أنه إذا ضعف الانتماء لدى الناس أو انعدم فلابد أن يكون هذا الضعف انعكاساً لخلل في هوية الأنسان ، على أن الهوية في أصلها تصور معنوي تقوم أساساً على الوعي بالبعد التاريخي للإنسان وتشكلها اعتبارات نفسية ودينية وتربوية متشابكة .

فإذا أردنا أن نتناول بالبحث ظاهرة ضعف الانتماء المتفشية في مجتمعنا فعلينا أن نبحث عن أصل الظاهرة واعتبارها هوية الإنسان ولقد تحددت هوية الناس في مصر بصورة قاطعة بعد الفتح الإسلامي وتم اختيار هذه الهوية في معارك طاحنة ضد التتار والصليبيين ووقفت مصر فيها موقفاً صلباً دفاعاً عن الإسلام كعقيدة ودفاعاً عن دياره باعتبارها الديار التي يمارس الإسلام فيها نظمه وتشريعاته ، على أن تغيراً جوهرياً طرأ على (الهوية الإسلامية) لشعب مصر مع بدايات القرن العشرين إذ أن سقوط مصر فريسة للاحتلال البريطاني وماتبع ذلك من حقن للمفاهيم العلمانية في المجتمع المصري وسقوط الخلافة العثمانية رغم شكليتها في مراحلها الأخيرة وماأدى ذلك إليه من تكريس لنتائج الحرب العالمية الأولى كل ذلك أتاح لسلطات الاحتلال البريطاني الفرصة لإخراج الإسلام كهوية وكمصدر للتشريع من حلبة المنافسة وقد أدى ذلك بالمصريين إلى حالة من الفراغ دعت بعض المفكرين إلى محاولة بعث الفرعونية كتراث في محاولة إيجاد هوية بديلة تملأ هذا الفراغ .

على أن الهوية القومية المصرية والهوية القومية العربية وحدهما

فشلنا في مواجهة التحدي الإسرائيلي وفشلنا كذلك كقوة جامعة على المستوى الاقتصادي في مواجهة التحديات الاقتصادية .

ومعنى هذا أن الهويات البديلة التي ليس لها في وجدان المسلمين من أساس صلب لاقيمة لها ولايمكن أن يثبت .

إن كل ماأعطى المصريين القوة والصمود في وجه الغزو الخارجي ومقاومة الدخيل المحتل هو الإسلام وحده ، فليس هناك على وجه الحقيقة مايسمى الشخصية العربية أو المصرية وإنما هناك الشخصية التي كونها الإسلام فقطع الإسلام بينها وبين كل الماضي القديم وأقام لها وجوداً جديداً خالصاً .

يقول عبد الكريم غلاب :

لقد طبع الإسلام العروبة بطابع ثقافي وعلمي وحضاري والابتعاد عن الإسلام قطع لجذور العروبة نفسها .

وقد وصلت إلى أن العروبة والإسلام لايمكن الفصل بينهما ، إن العروبة كقومية مجردة من الإسلام خطأ ، لأن الإسلام هو الذي طبع العروبة بطابع فكري وطابع حضاري دقيق جداً اختفت معه العرقية والقبلية واتسعت آفاق وجودهم الفكري والحضاري في الإسلام .

إن هذا التمازج بين العروبة والإسلام طوال أربعة عشر قرناً لايمكن أن ينتهى بالفصل بينهما .

حاشية : *هناك جملة من الحقائق*

(١) انتقلت فكرة القومية إلى الوطن العربي عن أوربا أواخر القرن ١٩ وكانت مختلطة بالعلمانية ،

حتى قضية فلسطين أصبحت علمانية فقد حاولوا عزل الإسلام تماماً عن التصور العربي جملة .

- أقامت الولاء القومي بديلاً للوحدة الإسلامية .

- أقامت الحضارة العربية بديلاً عن أسلوب العيش الإسلامي .

- أقامت العلمانية بديلاً عن الشريعة الإسلامية .

ومن هنا عجزت القومية بهذا التصور المضطرب المغلوط عن أن تحقق نجاحاً وكانت الأصوات التي تقدم التصور الصحيح أضعف أثراً من ذلك . يقول أنور عبد الملك (الإسلام في العروبة علاقة دين المسلم وثقافة وحضارة قومية لغير المسلم) وقال مكرم عبيد : أنا قبطي المولد مسلم الثقافة .

الفصل السابع

اليقظة

أنور الجندي

بيت الحكمة – ص . ب (٥ – ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر – ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

قامت حركة اليقظة في مواجهة عملية الاجتياح الشديد الذي أطلق عليه اسم التغريب أو الغزو الثقافي والاحتواء .

فقد أحس الغرب بعد هزيمته في الحروب الصليبية أنه لابد من إيجاد مدخل لهزيمة المسلمين واحتوائهم عن طريق الكلمة : هذه حرب الكلمة التي أريد بها أمران :

أولاً : إخراج المسلمين من الإسلام .

ثانياً : تزييف مفهوم الإسلام حتى يفقد جوهره الأصيل الذي يقوم على الذاتية الخاصة والجهاد والتوحيد الخالص بما يمثله من المسئولية الفردية والالتزام الاخلاقي .

وذلك في محاولة لتغريب الإسلام (بإخراجه من مفاهيمه) وتغريب المسلمين بإقناعهم بمفهوم إسلامي مفرغ من قوته الحقيقية وهو مايطلق عليه : الدين (أو اللاهوت) الذي يقصر العلاقة على مابين الله - تبارك وتعالى - والإنسان وتجاهل ذاتية الإسلام وتميزه الخاص بوصفه ديناً جامعاً (منهج حياة ونظام مجتمع) من ناحية أو دينا عالمياً أرسل إلى الناس كافة وهو ختام الرسالات وقائم إلى يوم القيامة ومهيمن على الدين كله كما أن كتابه « القرآن » مهيمن على كل رسالات السماء التي جاءت من قبل .

هذا هو مدخل اليقظة في الحقيقة ، فاليقظة هي تلك الدعوة التي تعالت صيحتها بالعودة إلى المنابع والتماس منهج الإسلام الأصيل السمح اليسير قبل ظهور الخلاف والمحرر من معتقدات الفلسفات اليونانية وعلم الكلام والتصوف الفلسفي والفكر الوثني والعاطفي الذي اختلط به والذي كان هو العمل الأول لحركة التغريب بانبعاثه مرة أخرى بعد أن قضى عليه

مفهوم أهل السنة والجماعة في القرن الرابع الهجري ومابعده على يد الإمام الشافعي وابن حنبل والغزالي وابن تيمية وغيرهم .

ومن هنا كانت اليقظة عملية إحياء وعملية تصحيح ، بحيث يجري تقديم الإسلام من منابعه الأصيلة بلغة العصر ، في حدود ثوابته ومتغيراته ومن خلال ضوابطه وحدوده .

ثم إبراز نتائج إخفاق القوانين الوضعية والأنظمة الوافدة ليبرالية أو ماركسية ورفض الجسم الإسلامي لقبول العنصر الغريب .

كذلك فقد كشفت حركة اليقظة عن قدرة الإسلام على تصحيح مسيرة الأمة الإسلامية إذا ما أنحرفت أو اذا غلبها غالب فأحالها عن الصراط المستقيم الذي رسمه لها القرآن الكريم ولقد كانت عملية التغريب والغزو الفكري المعاصرة أشبه بالحملة القديمة التي حاولت احتواء الإسلام وفكره ومفاهيمه في القرن الثاني بترجمة الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية حيث وقف علماء المسلمين وقفه حاسمة في وجه هذا الطوفان من فكر طفولة البشرية ووثنيات الأمم القديمة التي جاء الدين الحق أساساً للكشف عن زيفها وتحطيم وجودها ثم جاء الإسلام ديناً خاتماً عالمياً ليقر وجهة البشرية كلها نحو التوحيد الخالص .

ومن هنا فقد مضت حركة اليقظة تشق طريقها في سبيل الوصول إلى المنابع وإقرار مفهوم التوحيد الخالص وتحرير الفكر الإسلامي من التبعية .

وقد كان القرآن الكريم والسنه المطهرة هما الركيزة الأساسية لهذا العمل كله مع الاستمداد من تراث الأصالة الإسلامية الذي خلفه علماء المسلمين الأبرار .

ولقد كان العمل خطيراً وشاقاً حيث استطاع النفوذ الأجنبي التركيز على مدارس الإرساليات والصحافة في إعداد جيل يدافع عن الفكر الغربي ويحمل نظريات الاستشراق ويخضع لعملية التبشير التي كانت تعمل أساساً على إخراج المسلمين من عقيدتهم ليكونوا خصوماً للإسلام وللأديان جملة .

هؤلاء الذين حملوا لواء الدعوة إلى نظرية دارون والفرويدية والماركسية ونظرية العلوم الإجتماعية (دوركايم) والمادية التاريخة وجرت المحاولات لتقديم الاشتراكية بديلاً عن العدل الإجتماعي وتقديم الديمقراطية بديلاً عن الشورى الإسلامية .

واختلط ذلك كله بالفكر القومي والعلمانية ، في حرب خفية للإسلام تحت مسميات كثيرة سواء منها القديم ، أو الرجعية أو السلفية أو غيرها من المصطلحات التي يراد بها إخفاء وجهة الحرب للإسلام ، بل أن الحملة على الإسلام والقرآن الكريم تخفت تحت اسم الهجوم على اللغة العربية ووصفها بالجمود وجرى تقديم مصطلحات العصرية والتقدم من خلال مفهومها الماركسي الذي يختلف عن مفهومها في الفكر الإسلامي .

واستغلال مختلف التناقضات والبحث عن عوامل الخلاف لتوسيعها حتى ينقسم المجتمع الإسلامي إلى فريقين متصارعين ، وقام الفكر الوافد بتفسيرات للتاريخ الإسلامي ترمى إلى إثارة الشبهات حول العثمانيين والمماليك والأيوبيين (هؤلاء الذين قاوموا الحروب الصليبية والغزو الغربي) بدعوى أنهم أخروا أو تحت عنوان : إن تلك الحروب كانت خلافاً بين أوربا والعرب .

واستطاع النفوذ الغربي عن طريق سلطانه المفروض على الوطن

العربي والبلاد الإسلامية أن يفرض ثلاث أشياء (المدرسة - المحكمة - المصرف) وأن يفرض قانون نابليون بديلاً عن الشريعة الإسلامية التي كانت منفذة حتى وصول الحملة الفرنسية بشهادة كتابات الفرنسيين في كتاب وصف مصر وتاريخ الجبرتي وكان نفوذه خطيراً عن طريق التعليم المفرغ من الإسلام فضلاً عن دعوات الإقليمية وحقق عن طريق ذلك أهدافا كثيرة :

أخطرها : مفهوم تمزيق الوحدة الإسلامية بدعوات الإقليمية والقومية ، وتعميق الفجوة بين العرب والفرس والعرب والترك .

وثانيها : مايجري في البلاد العربية من تأثير لمفهوم القومية الوافد .

ثالثاً : تحييد مصر بعد معاهدة كامب ديفيد ، والعجز عن استخلاص الجزء الذي اغتصبه اليهود من الوطن الإسلامي .

رابعاً : عدم القدرة على اتخاذ موقف النبذ على سواء - والإسلام للغرب في موقعه - من أن تكون إسرائيل مالكه القوه المتفوقة على القوى العربية مجتمعة مع أن العرب يملكون من الثروة والقوة والطاقة مايمكنهم من تحديد وجهتهم وفرض موقفهم .

خامساً : استسلام العرب للغرب في أن تكون بلادهم سوقاً للاستهلاك ومصدراً للخامات دون أن يكون لديهم القدرة على بناء صناعة إسلامية حقيقية يتحررون بها من النفوذ الغربي .

وقد أصبح العالم الإسلامي اليوم محاطاً بثلاث مخاطر جسيمة تهدف إلى توهين قوته وتفكيك عراه وتمزيق صفوفه فقد أصبح العالم

الإسلامي مجالاً خصباً لدعاة الباطل .

(١) خطر الشيوعية الذي بدأ يكتسح البلاد الإسلامية بشكل مروع والذي أدى إلى تخلي بعض البلاد الإسلامية عن هويتها الإسلامية .

(٢) خطر التبشير المسيحي المحتوى من القوى الصهيونية والذي يشكل خطراً مزدوجاً ضد الإسلام والمسلمين فالبعثات المسيحية لاتترك وسيلة من وسائل الإغراء والمكر التى تقوم بها حتى حددت موعداً لتصفية بعض البلاد الإسلامية من الإسلام كأندونيسيا وغيرها .

وتوسع وسائلها في إغراء المسلمين الفقراء في المناطق التي تجتاحها المجاعة والاستيلاء على أطفالهم الصغار لتنصيرهم .

(٣) خطر الرأسمالية والماركسية وكلاهما من منبع واحد فالاقتصاد لعبة العجل الذهبي بشقيه – وهو معبود اليوم – والبنوك مساجده وأجهزة الوعظ والإرشاد هي مايسمى بالإشهار :

إن اسم تروتسكي يعني أقصى اليسار واسم روتشلد يعني الراسمالية المتطرفة وكلاهما يمثلان تموجات العقلية اليهودية فالتيار الرأسمالي والتيار الشيوعي أبوهما التيار الصهيوني والمعروف الآن أن أرقى الناس مادياً هم أشقاهم معنوياً لكثرة الانتحار وتعاطي المخدرات . واستعلاء الفسق والفجور حيث لم يعبد العجل الذهبي في عصر من العصور مثلما يعبد اليوم فأصبح الاقتصاد أو العجل الذهبي هو إله العصر والخطط السياسية والاقتصادية من ماركسية وصهيونية ورأسمالية أو التيارات الفلسفية ليست عقائد بالمعنى الصحيح ، وإنما هي تصميمات وتدبيرات مؤقتة بعيدة كل البعد عن إرضاء النفس البشرية والاستجابة

لداعي الحق في الميادين الجسمانية والنفسانية والروحية .

وهكذا تبدو صورة صراع الغرب (بشقيه) مع الإسلام في مرحلة اليقظة ، وقد عمد النفوذ الغربي إلى احتضان مجموعات من أتباعه تحت عناوين إسلامية للخداع والتضليل ، فاستحوذ على الطائفة المسماه بالأحمدية (خلائف القاديانية) وأمدهم بالمال والنفوذ ووجهوا توجيهاً خاصاً يراد منه إثارة الفرقة بين المسلمين وتشكيكهم في أصول معتقداتهم وكذلك كان احتوائهم للبهائيين .

وذلك في نطاق الحرب التي أطلق عليها : ضرب الإسلام من الداخل واحتواء بعض من يدعون النبوة أو يتولون مراكز حساسة باسم الإسلام خاصة في بلاد الغرب وهكذا فإن المستعمرين ركزوا أنفسهم لاستمرار النفوذ الأجنبي قبل أن يوافقوا على الانسحاب من الأقطار الإسلامية ، وأقاموا أوضاعاً جديدة تستبدل أعلامهم القديمة بأعلامهم الجديدة .

قال نهرو : سوف تجدون أنفسكم أمام مشاكل وسوف يندفع بعضكم إلى أن يطلب من صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي قرضاً فهل سألتم أنفسكم من الذين يسيطرون على صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي ؟ أخشى أن أقول لكم إنهم نفس جلاديكم السابقين أي أنكم سوف تذهبون إلى الأسياد القدامى طالبين منهم أن يساعدوكم على مسئولية الاستقلال ، وأي وضع هذا الذي تستعين فيه الضحيه بالجاني حتى يساعدها على تلافي آثار جريمته ، جريمة الاستعمار ، لن تصححها قروض وإنما سوف تزيدها سوءاً أ . هـ .

إن اليقظة هي في حقيقتها اكتشاف المسلمين لمؤامرة الغرب ضدهم ، في مختلف المجالات ، لإتمام عملية النهب واستنزاف الموارد

ويأتي التغريب والغزو الثقافي ليذلل قياد المسلمين وتبعيتهم وحتى يقبلوا بالغرب الذي يتآمر عليهم وهم مغتبطون بمفهوم الصداقة والولاء ولقد مضى المسلمون شوطاً في هذه التبعية وفي تصديق خدعه الغرب ولكن سرعان ماتكشفت الحقائق ، وفهموا أن خصوم الإسلام يعدون مؤامرة محبوكة الخيوط لاحتواء المسلمين ، ظهر ذلك في إحداث الهزيمة والنكبة والنكسة وتبين لهم بوضوح أن كل الخطط قد ثبت فشلها وأنه ليس أمام المسلمين إلا طريق واحد :

هو صراط الله المستقيم فهو وحده المنقذ .

لقد حاولت حركة اليقظة في مرحلتها الأولى إبراز سماحة الإسلام وقدرته على الالتقاء مع متغيرات العصر ، فقبلوا بعض معطيات الفكر الغربي والحضارة الغربية من منطلق التوفيق بين الإسلام وبين مفاهيم العصر ، من حيث أن الإسلام له مرونته وتقبله للجديد وبعده عن الجمود ولكن النفوذ الغربي كان يطمع في احتواء المسلمين وصهرهم في بوتقته والتخلص من كل المعالم البارزة التي تميز الإسلام ، (حدث هذا في محاولات رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وتفسيرات الشيخ محمد عبده في جمعه بين المعقول والمنقول ، وفي تبني التصور الفلسفي الذي يتمثل في الكلام والاعتزال منطلقاً لتصور إسلامي) ولكن سرعان ماتبين أن محاولة الاحتواء ترمى إلى إزالة الوجه الإسلامي تماماً .

ومن هنا جددت حركة اليقظة نفسها من منطلق إسلامي أصيل يحكم على التراث كما يحكم على الوافد بحيث يظل التصور الإسلامي قرآنياً أصيلاً يستمد من يسر الإسلام وبساطته بعيداً عن تعقيدات الفلسفة وعلم الكلام .

ومن هنا غلب منطلق التصور القرآني على التصور الفلسفي وجرى التحرر من التصور التوفيقي الذي كان يقول أن اشتراكية العرب موجودة في الإسلام كما أن ديمقراطية العرب موجودة في الشورى وبانت المعالم واضحة تفرق بين المصطلحات الإسلامية والمصطلحات الغربية بل لقد اضطرب مجال كتابة التاريخ الإسلامي بعد أن غرق في مفاهيم تقبل مفاهيم التصور الغربي على النحو الذي حدث في كتابات فريد وجدي والدكتور محمد حسين هيكل والعقاد في السيرة النبوية من إعلاء العبقرية وإنكار الإسراء بالجسد وتفسير بعض المعجزات تفسيراً مادياً حرفياً (مثل تفسير الطير الأبابيل بالجراثيم) ووضح مفهوم الإمام الغزالي حين قال أن علم الكلام كالدواء يستشفي به المريض ولكن القرآن كالماء لايستغنى عنه حي ، وتحرر مفهوم الإسلام من تغيرات كثيرة حاولت الفلسفات المادية – المستمدة من الوثنية اليونانية – ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ومفاهيم الفلسفات جملة سواء من القول بالعقل الفعال أو الفيض أو غيرها من نظريات باطلة دخلت على المسلمين من الترجمات كذلك تحرر الفكر الإسلامي من اعتماد النظرية الإغريقية في الأخلاق (نظرية الوسط) التي أشاعها ابن مسكويه .

وأعلن الإسلام مفهومه الجامع بين الفردية والجماعية وبين العدل والحرية وبين الجانبين الإلهي والبشري وبين التقاء الأجيال وليس صراع الأجيال كما تقول النظريات الغربية .

كما صححت اليقظة مقولة تأثر الإسلام بالفلسفات اليونانية بعد ترجمتها وكشفت عن أنه اكتمل تماماً قبل أن يختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى ، وأن موقف الإسلام من الفكر الوافد جميعه كان موقف الحذر

والاحتراس وتصحيح أخطائه ومانقبله منه تقبله بوصفه مادة خاماً نصهرها في بوتقته المتميزة الخاصة ، وبذلك حفظ لنفسه وضع الذاتية الإسلامية المتميزة وكشف فساد نظريات الكندي والفارابي وابن سينا من ناحية أخرى كما كشف فساد نظريات إخوان الصفا وأعلن أنها جمعية سرية كانت تدعو إلى الفكر الباطني وتحاول هدم الدولة الإسلامية .

الفصل الثامن

الأصالة

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

لكل حضارة (ولكل ثقافة) خصائصها الميزة المستمدة من قيمها وعقيدتها وأخلاقها وميراثها التاريخي الذي بنته في ماضيها ، والمسلمون لهم ميراثهم الحضاري الزاخر بالقيم السامية والمتصف بالمرونة والانفتاح .

ولما كانت الأصالة قوة تاريخية تحرك الشعوب والأمم ، فإن كل أمة لابد أن تحتفظ بأصالتها في نفس الوقت الذي تأخذ فيه بأسباب التقدم والمسلمون هم أقدر الناس على الجمع بين الأصالة والمعاصرة لأن منهجهم الاجتماعي مرن واسع قابل لتجارب الأمم ومعطيات الحضارات .

غير أن الأصالة تقتضيها أن تكون على وعي تام بأن نظريات الفكر الغربي (وخاصة ما يتعلق بالأخلاق والقيم ومفاهيم الحضارة والتاريخ والآداب والفنون) تنطلق من منطلق واحد هو الفلسفة المادية التي ترفض الأديان والنبوات والرسالات السماوية والوحي والغيب ومن هنا فهي تدعو إلى بعث الوثنية والإباحية والإلحاد .

وقد قام المثل الأعلى للحضارة الغربية على أساس (دنيوي علماني غير ديني غير مسيحي) وهكذا ولدت كلمة (أيدلوجية) لتعبر عن إطار ومضمون الديانات الأوربية المادية في عصرها التكنولوجي الصناعي ومجتمع الاستهلاك والرفاهية والترف والإباحية .

ويتقاسم هذا الاتجاه الفكرين الليبرالي والماركسي ، ذلك لأن الفكر الماركسي خرج أساساً من عباءة الفكر الليبرالي ، وإن كان مضاداً له ولكنه ينطلق من الفلسفة المادية والتفسير المادي للتاريخ ، وينكر الألوهية والوحي ويعلي شأن العنصرية والأجناس .

ولما كان المسلمون يملكون تراثاً خصيباً عريضاً قادراً على العطاء لحل مشاكل العالم المعاصرة - فضلاً عن منهجة الرباني الأصيل الذي

استمد منه التراث عيونه ومعالمه ، فإنه من الصعوبة أن يقبل المسلمون سيطرة أي فكر وافد عليهم ، لقد شهد علماء القانون في عديد من مؤتمراتهم العالمية بعظمة الفقه الإسلامي وقدرته على العطاء ليس للمسلمين وحدهم ولكن للبشرية كلها ودهشوا لأن المسلمين يتركون هذا الكنز ويتسولون فتات موائد الغرب فيأخذون القانون الوضعي الذي وضعه عقل بشر ، في ظرف ما في بلد ما ، مما يجتاحه المتغيرات يوماً بعد يوم ، حيث يترك المنهج الرباني الأصيل الذي وضعه الحق - تبارك وتعالى - وهو العليم بخلقه والقادر على العطاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد يدهش الغربيون للمنظومة الإسلامية التى تجمع بين التراث والمعاصرة ، على حد قول الأستاذ أبو طالب الإبراهيمي ، وكأنهم يريدون من المسلمين أن يختاروا أحد الأمرين ، إما أن يستوعبوا التبعية مع التنكر لثقافتنا ، أو نتمسك بثقافتنا وحدها مع ما يترتب على ذلك من خطر الزوال ، والحقيقة أن أوربا مخطئة بعدم تمييز ما بين الحضارة العالمية والثقافة الأوربية .

وهذا ما أشار إليه بول ديكور حين قال : إن الحضارة تنمى لدى الأفراد نوعاً من الشعور بقيمة الزمان وهذا الشعور هو أساس التحصيل والتقدم ، أما الطريقة التي تنمى بها الشعوب ثقافتها فلا تعتمد على قانون التحصيل والتقدم بل على قانون الوفاء للتراث من جهة الخلق والإبداع من جهة أخرى وليس في المفهوم الإسلامي أن نقبل الحضارة جملة أو نرفضها جملة في علاقة الأدوات الصناعية بالفكر ، نأخذ الأدوات المادية ونملأها بفكرنا المتميز ولا يستطيع أحد أن يلزمنا حين نأخذ الأجهزة المادية الحديثة أن نديرها على فكر الغرب .

✍

الفصل التاسع

الصحوة

أنور الجندي

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

عندما وقعت القدس فى أيدى اليهود ، وتحقق ما أطلق عليه اسم النكسة تبين للمسلمين أنه لم يعد هناك خيار إزاء المنهج الذى يعتنقونه ليقيموا عليه مجتمعهم وأن هناك طريقاً واحداً هو الإسلام ، كان هذا يعنى أن المنهج الإسلامى وحده هو القادر على إنقاذ الأمة الإسلامية من الحصار الذى أحيط بها خلال أكثر من مائة عام منذ فرض عليها قانون نابليون ومخططات التغريب والغزو الفكرى فى التعليم والاقتصاد والمحكمة .

وتأكد بأنه لابد من عودة الإسلام كفكر أصيل قادر على بناء مجتمع الإسلام في مواجهة تحديات الفكر الغربى والتحرر من التبعية التى نفذت إلى جميع مجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية .

وبذلك أصبحت هناك ضرورة لإعادة النظر من جديد في هذا التاريخ الغريب لتصحيح الأخطاء التى تلبست بمفاهيم القيم انطلاقاً إلى أسلمه العلوم والمناهج .

لقد تأكد جوهر مفهوم الدعوة الإسلامية من أنها منهج حياة ونظام مجتمع وأنها أصلح المناهج وأقدرها على العطاء وحل مشاكل المجتمعات المعاصرة وشهد بذلك الأعداء وتكشف أمام المسلمين عدة حقائق أساسية تؤكد صدق توجههم وفساد ما حاولت قوى التغريب خلال مائة عام وأكثر أن تبثه من تشكيك فى عطاء الإسلام وتزييف فى تاريخه وإقحام مفاهيم وثنية وغربية عفنة .

وقد جاءت الصحوة الإسلامية في جوهرها وفاء عاجلا للوعد الإلهى بحفظ دينه والتمكين لأهله ونصرة المستضعفين في الأرض :

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ .

كما ثبت أن الصحوة إنما جاءت ثمرة للجهود الصادقة المؤمنة التى بذلتها القوى الإسلامية ليس طمعاً فى مال ولا جاه وإنما دعوة مخلصة لتمكين دين الله فى الأرض وإن هذه الصحوة لتؤكد بدلاله جلية على فشل الاتجاهات الوافدة التى سادت المنطقة الإسلامية ، وإن اقتناع جمهرة المسلمين بالعودة إلى الأصالة ترجع إلى رفضها الكامل لكل عوامل تزييف هوية الأمة باستيراد المفاهيم والقيم من خارج الحدود .

فقد كشفت حركة أضواء الطريق أمام الصحوة حين واجهت فكرة القومية وفكرة الليبرالية وفكرة الاشتراكية وفكرة العلمانية وفكرة الإقليمية وتبين أن هذه الأفكار المسمومة إنما رسمت فى مخطط تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وتسليمها لصراعات الأيدلوجيات وسرعان ما كشفت أقلام الإسلامية فساد مناهج الغرب في بلادها أساساً فكيف تصلح لأمم أخرى لها منهجها الربانى الأصيل .

لقد جاءت الصحوة كرد فعل حتمى في مواجهة طغيان القيم المادية للحضارة الغربية مع ما صاحبها من موجات الخلل والفساد وانتشار المخدرات والشذوذ الجنسي وارتفاع معدلات الانتحار فضلاً عن تفشى القلق والشعور بالضياع (طغيان القيم المادية) مما أدى إلى اختلاف التوازن فى حركة المجتمع فقد أدت الثورة الصناعية إلى اندفاع سريع فى طريق النمو الاقتصادي والفنى دون أن يصاحب ذلك تقدم اجتماعى مماثل الأمر الذى أدى إلى الخلل فى حركة المجتمع وظهور العديد من المشاكل وأخطرها تفشى البطالة وتعاقب الأزمات الاقتصادية فضلاً عن التوتر الاجتماعي ومضاعفة عوامل الصراع الطبقى .

هذا فضلاً عن أن محاولة ترشيد الحياة الاقتصادية فى الغرب لم تمكنها من تحرير الإنسان من غلبة المادية على المدنية المعاصرة فبالرغم من اتساع رقعة الرخاء ومستويات المعيشه فإنها لم تحقق الراحة النفسية فقد زادت ضغوط القلق والانحلال وتفشى الأمراض العصبية والعقلية وارتفاع معدلات الانتحار رغم التقدم المادى ، هناك تبين للغرب أن مطلبه الحقيقى هو الشعور بالسكينة والاطمئنان النفسى والأمان الروحى وهو ما تفتقده الحضارة الغربية ولا يوجد إلا فى الإسلام ومن هنا كان إقبال كبار الفلاسفة والمثقفين الغربيين على الإسلام إيماناً بما يملك من عطاء فى هذا المجال .

ومن هنا لا يمكن أن تكون الصحوة الإسلامية موجة عابرة ، ولكنها حقيقة واقعة تركت جذورها فى الأمة الإسلامية وامتدت إلى علم الغرب حيث أخذت تصارع خططه وتكشف فساده .

وفى أكثر من مؤتمر عالمى تأكد فشل الفلسفات والمذاهب الغربية والشرقية فى حل مشاكل الإنسان المعاصر لتركيزها على الناحية المادية دون الجانب الروحى (غير المعترف به) مما يسبب اختلالاً في وجدان الإنسان وقد ظهرت آثار ذلك فى البلدان المتقدمة ماديا (صراع وحشى وانحلال خلقى وانتحارات ومذابح) .

وقد ثبت لدى كثير من المفكرين أن الإسلام هو الوحيد القادر على الأخذ بيد الإنسانية عبر هذه الأمواج المتلاطمة إلى شاطىء السلام لما يشتمل عليه من قيم نبيله وأفكار سامية فعلى علماء المسلمين أن يقوموا بدعوة هادفة تخرج هذه القيم من نطاق النظريات إلى حيز التطبيق العملى .

ولعل أشد المخاطر التى يجب مواجهتها هو التصور الإلحادى للوجود الذى كاد أن يصبح سمة العصر والذى لا يكاد يخلو منه جانب من جوانب الحياة المعاصرة العالمية وهو أكبر تحدٍ يواجه الدعوة الإسلامية فإذا نجحنا في التصدى له بالنقد العلمى المستنير وفى أن نقدم تصورنا المستمد من الإسلام بديلاً لهذا الإطار الإلحادى وأقمنا الحجج العلمية والشواهد الواقعية على أنه الإطار المناسب تكون قد أسدينا خدمة كبيرة ليس لأمتنا الإسلامية فحسب ولكن للمجتمع الإنسانى كله . ولابد من اليقين بأن تصورنا الإيمانى هو الحق الذى لا ريب فيه ، مع التصدى للتصور المغلوط وعدم مسالمته أو مهادنته بحجة المعاصرة أو التجربة مهما طال الزمن ، وأن نكون على ثقة من أن الصبر واليقين هما الشرطان اللازمان لكل من يريد أن ينال شرف القيادة الفكرية المقتدية بهدى رسول الله ﷺ ، ولا شك أن الثبات واليقين لتحديات العصر يحتاج إلى الصبر واليقين ، وعلينا بعد ذلك أن نأخذ المنهج العلمى بعد تنقيته من الشوائب الإلحادية وأن نصهره فى بوتقه مفهومنا الإسلامى وتصورنا القرآنى ، ذلك أن الربط بين المنهج والتطبيق هو الأساس الأول لانتقال الصحوة إلى مرحلة النهضة ، لابد من نقل الفكر الإسلامى إلى واقع الحياة المعاصرة ، والتوصل إلى صيغة تحقق الموازنة بين العقيدة الإسلامية والحياة اليومية وبين النظرية المجردة والممارسة الفعلية مع حماية المجتمع من عوامل التفرق والتمزق ومن تأثير الحركات والتيارات الأجنبية التى تفتك بالعقيدة والأخلاق وتضعف مناعة المجتمع الإسلامى أمام الغزو الثقافى والسياسى الأجنبى (المؤتمر العالمى للدعوة الإسلامية – الخرطوم مارس ١٩٨١) .

المحافظـة علـى الذاتية الإسلاميـة
هى أكبر أهداف الصحوة الإسلامية :

إن مـخطط الغـزو الفكرى والتـغريب قـد عـمل علـى هدم هذه الذاتيـة الإسلامية فى المرحلة التالية للاستعمار العسكرى والسياسى الذى انحسر عن الأمـة الإسـلامـيـة مـخلفـاً بعـده هذا العـمل المنظم عن طريق رجـاله المسيطرين على قيادات السياسة والفكر من ناحية وعن طريق الصحافة والتعليم والإعلام من ناحية أخرى : هذا المخطط الذى أعد قبل انسحاب الدول المستـعمرة من البلاد العربية والإسلامية ليكون بديلاً عنها والذى أطلق اسم الاستعمار الفكرى قبل أن يسمى الغزو ، وقد كان هذا المخطط قد روعى فيه انسحاب مظاهر التحدى بالنفوذ الظاهر الذى يلقى الكراهية بينما تتحصن الأهداف الاستعمارية كلها وراء قفازات حريرية فى مجال الفكر والثقافة والأدب تحت أسمـاء التبـادل الثـقافى أو الالتقـاء بالفكر العالمى ، وروائع الأدب الانسانى ، ووراء الأيدلوجيات الخ .

وذلك من أجل أن تظل الدول التى انحسر عنها الاستعمار العسكرى والسياسى مرتبطة بهذه الدول اقتصاديا ، كأنما جاء هذا الانحسار فى الشكل والصـورة ، ولكنه قـائم فى الحـقـيـقـة فـمن وراء هذه التـبـعـيـه الاقتصادية تبعيه ثقافية واجتماعية تشير إليها الاتفاقيات والمنح المادية ومن أخطرها التعليم الذي يوفد إلى بلادنا مناهج غربية ويرسل إلى الغرب مبعوثين يُصنعون هناك على مفاهيم الغرب ، فضلاً عن تحامى الدعوة إلى الشريعة الإسلامية أو الجهاد أو مواجهة الأخطار الخارجية .

ومن ثم فإن هذا الجيل كله فى حاجة إلى ترشيد ، وإن هذا التاريخ الثقافى والأدبى القريب يجب مراجعته وكشف فساده وتبعيته ، فإن مناهج

التعليم والثقافة والصحافة لا تعطي مفهوم الإسلام الثقة لقيمه وتاريخه وثرائه ولكنها تعطى نوعاً من الثقة بفكر الغرب وإعلام الغرب حتى تتحول التبعية إلى انصهار فى الحضارة الغربية يقضى تماماً على التميز الإسلامى .

وفى ضوء الخوف من المد الإسلامى تحول الطعام والغذاء العالمى إلى سلاح على المستوى الدبلوماسى والسياسى ، وإن دولا إسلامية مملوكة كرهائن لظروف الطعام والغذاء .

وقد أثار أكثر من كاتب غربى هاله الخوف من البعث الإسلامى أو المد الإسلامى وهو خوف يؤرق الفكر السياسى فى الغرب (وفى أمريكا بالذات) ويبحث عن وسيله لإضعاف هذا المد .

ومن هنا تجرى المحاولات لإيجاد طبقة عازلة من دعاة التسوية لها طابع إسلامى ظاهرى لتسيطر على الواجهات الثقافية ولتضع فى الظل أصحاب الفكرة الصحيحة (وقد بدأت تظهر أسماء وتلمع تحت هذا الضوء يعلو صوتها أساسا بالإذعان إلى خصوم الإسلام تحت أسماء متعددة) .

والواقع أن الإسلام لا يقبل العدوان ولكنه يؤمن بالعزة وعلى الغرب أن يحترم وجهته هذه ويجعل تعامله على ضوئها معاملة الند للند وأن لا يحول بينه وبين آفاق مجتمعه الإسلامى وتطبيق شريعته فهذا حقه ، أما الدعوة إلى (التعايش) القائم على امتصاص حق المسلمين فى حماية عقيدتهم وبناء مجتمعهم فإنها مما لا يقبل به أحد وإن من حق عالم الإسلام أن يستخدم مصادر قوته الحقيقية فى الوجهة الصحيحة فإن من أعطى الذل من نفسه راضياً غير كاره فليس منا .

ويقول الدكتور رشدى فكار إن هناك إقراراً من جماعة المثقفين الغربيين عن أن الإسلام هو المنقذ الوحيد للبشرية من أزمات العصر وأن القرآن الكريم هو الوثيقة الوحيدة القادرة على مواجهة كافة الأزمات فى هذا العصر لأنه الكتاب السماوى الذى وثق الأنبياء والرسل والكتب السماوية فضلاً عن توثيق الإسلام ومن ثم فقد أصبح الإسلام هو الدين والرسالة السماوية التى تتجه إليها البشرية للخروج من الأزمة .

وقد اعترف بهذا علماء الغرب فى ظل ما يعرف بأزمات التاريخ فقد أعاد الإسلام صياغة الإنسان العربى على مر الدورات التى شهدها التاريخ الحديث ، الإنسان العربى إذا ارتقى فهو حامل لراية الإسلام وحضارته وإذا تقلص وتأزم فهو حامل لرايته لأنه عاد إلى عصور التغنى بقبليته فهو إذا ما تخلى نهائيا عن الإسلام فسوف ينسى فى مسيرة التاريخ .

إن الإسلام نور وهو مصدر الاستنارة بمعنى استنارة العقل المسلم عبر العصور والأجيال ، إن أزمة الفكر الوضعى ستصل إلى غايتها فى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين (م) وسوف يكون الإسلام هو مخرج البشرية منها .

ويقول مؤلف كتاب العرب وتحديات التكنولوجيا :

قدم المجتمع الفرنسى بحثا يتساءل فيه عمن يرث الحضارة فى القرون المقبلة باعتبار أن الحضارة تخضع لقانون التناوب التاريخى فوجد أن أصلح وريث هو الشرق وبالتحديد فى البلاد العربية أو الصين . وقد ذهب البحث إلى أن الأمة العربية الإسلامية سليمة فى جسدها البشرى غنية فى مواردها الطبيعية وما ينقصها هو توظيف هذه العطاءات : عطاءاتها الطبيعية فى باطن الأرض وعطاءاتها البشرية على أساس أن الشيخوخة لا تشكل النسبة الكبرى من السكان كما هو فى غيرها من الأمم إلى جانب عطاءاتها التاريخية من قيم العدالة والكفاية ومن الممكن بما للأمة الإسلامية من عطاء بشرى متزايد وعطاء تاريخى عظيم تستطيع أن ترث حضارة المستقبل ويقرر الكاتب أن العرب والمسلمين غير راغبين فى الانصهار فى حضارة العصر لأنهم يحلمون بالحصول على إنجازات العلم والتكنولوجيا منفصلة عن النظام القيمى الذى يسمح بتطويرها . أ.هـ.

كشفت الصحوة الإسلامية عدة حقائق :

- كشفت فشل الايدلوجيتين الليبرالية والماركسية .
- كشفت فشل القانون الوضعى وعجزه عن إسعاد المجتمعات .
- كشفت فشل النظام التربوى العلمانى .
- كشفت فشل الظام الربوى الذى يقوم عليه الاقتصاد العالمى .
- كشفت فساد ظاهرة القومية المستغلبة بالعنصر .

الفصل العاشر

عالمية الإسلام

أنور الجندي

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

الإسلام وجوده على العالم بقوة الحق التى يمتلكها ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ، فمن اليوم الأول لظهوره وكل حدث من أحداث العالم متصل به على نحو من الأنحاء ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ .

فرض

وقد برزت قدرته على التميز الخاص ورفض مناهج الغرب الوافدة التى تحاول احتوائه وصهره فى بوتقتها .

وهو اليوم يزحف فى قوة فيسيطر على النفوس والعقول فى شتى أنحاء الأرض حتى نجد جريدة مثل الصنداى تلغراف البريطانية تقول : سيكون الإسلام الديانة السائدة فى العالم حيث يزيد معتنقوه عن ألف مليون مسلم ويحقق زيادة سنوية تقدر بحوالى ٥٠ مليون نسمة ، ولا ترجع الزيادة إلى نسبة السكان بل إلى الأعداد الكثيرة التى تعتنق الإسلام على أيدى عشرات الآلاف من الدعاة الإسلاميين فى أكثر من ١٢٠ دولة .

ويشكل المسلمون أغلبية فى ٤١ دولة ويعتبرون أقليات سياسية فى ٥٠ دولة أخرى ، والإسلام وحده هو القادر على حشد الجماهير وتعبئتها لتغيير أى نظام ديكتاتورى مهما بلغت دقة نظامه .

فى بداية الثمانينات ولأول مرة منذ أكثر من قرن تتجه الدول الإسلامية إلى الشريعة والقوانين الإسلامية بعد فشل الاشتراكية والديمقراطية وقد حقق الإسلام فى مصر نجاحاً كبير بالرغم من الظروف المحيطة به ، وينمو تمسك الأفراد والجماعات بالهوية الإسلامية بعد خيبة الأمل التى وجدوها فيما يسمى بالقومية والاشتراكية والديمقراطية وسائر النظم والقوانين الغربية .

وهم يمثلون الآن

(١) قوة كبيرة فى مجالات اقتصادية كثيرة (بنوك ومصانع) .

(٢) انتصار الزى الإسلامى بين نساء مصر بشكل أكثر .

(٣) عودة تركيا بعد إعلان أتاتورك الدولة العلمانية إلى أداء الشعائر الإسلامية .

(٤) فى الاتحاد السوفيتى يسرى خوف شديد بين قادة الحزب الشيوعى من تنامى الشعور الإسلامى بين ٦٠ مليون مسلم يمثلون (٥) جمهوريات من (١٥) جمهورية فى الاتحاد السوفيتى وقد أجبر السوفيت على سحب جنودهم من أفغانستان .

(٥) فى ماليزيا نسبة المسلمين ٥٣ فى المائة ويحرص المسلمون على تعليم أولادهم القرآن والتزام بناتهم بالحجاب الإسلامى من سن السادسة.

(٦) فى مالى والسنغال التزام بتعاليم القرآن والتزام بالزى الإسلامى .

(٧) وفى أوروبا بدأ التوجة إلى المشرق من أوائل الثمانينات بعد أن كانت الدول الإسلامية هى التى تتوجه إلى الغرب .

(٨) لم يقتصر النشاط الإسلامى على بلاد الإسلام بل أن هناك أصوليون الآن فى أوروبا .

فى تقرير من إحدى مؤسسات الغرب نشرته مجلة لودينا الفرنسية عن مصير البشرية (دراسة هامة فى مجال الفكر الاستراتيجى) تحت عنوان :

(مستقبل نظام العالم سيكون دينيا والنظـــام الإســلامــى سيســود)

تنبأت الدراسة بحدوث تغيرات بطيئة ولكنها ثابتة فى نفس الوقت فى هيكل النظام العالمى من خلال سلسلة من التحولات الصغيرة المستجدة تفقد على أثرها القوتان العظيمتان تأثيرهما على تحريك العالم .

أكدت الدراسة أن مستقبل نظام الحكم سيكون دينيا وسيسود النظام الإسلامى العالم على الرغم من ضعفة الحالى لتميزه بشمولية (نقول نحن بتكامل) تمكن من (توهين) قوة النظام العالمى الذى سيظل يحكم العالم خلال العشرين سنة القادمة حيث تظهر قوة عالمية ثالثة - هى القوة الإسلامية - فالنظام الإسلامى سيسود ويسيطر على العالم بالرغم مما يبدو من ضعفه حاليا وذلك لتميزه (بشمولية) هائلة يتمكن من خلالها من سحق قوة النظام العالمى لأنه يتعامل مع الشعوب بطريقة علمية .

وتؤكد الأبحاث ظاهرة تزايد عدد المسلمين وتناقص عدد أهل الغرب وأن هناك الآن خمس دول إسلامية يزيد عدد سكانها عن خمسين مليونا تتقدمها :

أندونسيا (١٦٨ مليونا)

تليها نيجريا وبنجلاديش وفى كل منهما ١٠٥ ملاين نسمة

وباكستان ١٠٤ ملاين نسمة

وتركيا ٥٣ مليون نسمة

ومصر ٥٠ مليون نسمة ،

وقياساً على ذلك فإن عام ٢٠١٠ القادم سيشهد وصول تعداد السكان فى العالم الإسلامى إلى ٣ بلايين نسمة (أى ثلاثة آلاف مليون

نسمة) وأن تعداد السكان سوف يستمر طوال الحقبة المقبلة ولمدة لا تقل عن خمسين عاما . أ.هـ .

✍

(وهكذا جاء يــوم الإســلام بعد أن أفلست كل الأيدلوجيات)

وتشير التقارير إلى أنه فى النصف الأخير من القرن العشرين يتضح زيادة انتشار الإسلام ٢٣٥٪ بينما تبلغ نسبة انتشار المسيحية ٤٧٪ والبوذية ٦٣٪ والهندوكية ١١٧٪ .

وهناك احتمال زيادة أخرى ، فمن المتوقع أن يصير ثلث سكان فرنسا مسلمون فى بداية القرن ٢١ ويبلغ تعداد المسلمين فى أمريكا بين ١٥ / ٢٠ مليون (الآن ستة ملايين فى أمريكا الشمالية) .

وفى تقرير للدكتور/ مزمل حسين الصديقى رئيس المؤتمر الدولى يكشف عن أن المسلمين خلال خمسين عاماً زادت نسبتهم (٢٠٠ ٪) يقول : إن المتتبع لحركة انتشار الإسلام فى شتى بقاع المعمورة وشدة رغبة الكثير من الناس فى هذا العالم فى البحث عن ملجأ روحى يلجأون إليه من أجل إرواء هذا الدافع الذى يعتقدونه بسبب انغماس العالم اليوم فى الماديات .

فمنهم الكثير من الرجال والنساء يدخلون الإسلام فى قناعة تامة دون أى إجبار ولا إكراه فهم أنفسهم جاءوا طالبين السلامة فى ظل الإسلام .

وإن كل منصفى الغرب من مختلف الديانات ينظرون إلى الإسلام على أنه منهج كامل للحياة يضمن السعادة للناس أجمعين .

وهكذا تدخل عالمية الإسلام مرحلة جديدة فى مطالع القرن الخامس عشر ، قوامها :

تصحيح مسيرة الدعوة الإسلامية وتحريرها من الأشواك التى تعترض طريقها نتيجة للجمود الذى أصابها من ناحية ، ومحاولات التشويه التى قامت بها قوى الاستشراق والتبشير على مدى أكثر من قرن من الزمان ، خلال سيطرة النفوذ الأجنبى ومحاولاته المستمرة فى احتواء عالم الإسلام وإخضاعه للفكر الوافد .

وقد جرى هذا العمل فى أربع قنوات متصلة :

(القناة الأولى) تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه منهجا جامعاً يضم العقيدة والنظام ويقدم منظومة كاملة لمختلف جوانب الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

(القناة الثانية) تصحيح مفهوم الإسلام بوصفه دينا عالميا خاتماً ، جاء ختاماً للرسالات السماوية وللبشرية كافة منذ ظهوره بنبوة محمد ﷺ الخاتمة إلى أن تقوم الساعة .

(القناة الثالثة) تصحيح إسلام المسلمين الجدد الداخلين فيه في عالم الغرب وحمايتهم من خطر الاحتواء حول مذاهب باطنية أو فلسفة صوفية أو غيرهما مما لا يتحقق معه تقديم الإسلام الصحيح المصفى ولا ريب أن هذا المفهوم يكشف فساد دعاوى البهائية والقاديانية ومقولة مدعى النبوة أو القائلين بنبوة جديدة ، فقد قدم علماء المسلمين كل الدلائل

والأسانيد التى تؤكد عموم الرسالة وختم النبوة ، حيث لم يستطيع أى متنبىء خلال أربعة عشر قرنا أن يقيم هذه الدعوى المدعاة .

(القناة الرابعة) تصحيح مفهوم علاقة الإسلام بالأديان المنزلة من حيث أن جميعها يدعو إلى عبادة الله - تبارك وتعالى - والإيمان به والخروج من دائرة الوثنية والشرك والتعدد وإن ظلت هذه الأديان مرتبطة ببيئاتها وعصورها ، حتى إذا بلغت البشرية رشدها جاء الإسلام مصدقا لما بين يديه للناس كافة .

وقد أقر الإسلام أهل الأديان على عقائدهم وحفظ لهم وجودهم وحرية عباداتهم وجاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها وقد قامت الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية من عصارة تراث الرسالات كلها بحسبانها من عند الله - تبارك وتعالى - وموجهة إلى إصلاح النفس البشرية وهدايتها إلى الخير والحلال والرحمة والإخاء البشرى .

إن نقطة البدء الحقيقة هى حاجة القرب إلى الإسلام بعد طغيان الفلسفة المادية وحاجة النفس الإنسانية إلى الأمن والسكينة التى لا يمكن أن يقدمها غير الإسلام من المنهاج أو الدعوات أو أيدلوجيات ، هذا فضلاً عما توصل إليه علماء منصفون غربيون محايدون من قدرة الإسلام على العطاء فى هذا العصر وحل مشاكل البشرية بعد أن تعقدت أمور الأيدلوجيات وتطلعت النفوس المحبة للخير إلى الإسلام كمنقذ .

ويتحدث الكثيرون عن أن العقل الأوربى لا يرفض الإسلام إذا عرف حقيقتة وإذا سنحت له فرصة النظر المجرد دون أن تكرهه سموم الاستشراق على التعصب لفكره القديم .

فالتوجية الإسلامى أقرب إلى النفس البشرية من التثليث المسيحى ، وربما يصد عن الإسلام واقع المسلمين الذي لا علاقة له بالإسلام كمنهج أو طريقة الدعوة إليه من أناس متعصبين لآراء الفقهاء والعادات التى ألصقت بالدين أكثر مما يتعصبون لأصول الدين نفسه . إن هناك قوى فى الغرب تحول بين الغرب وبين فهم الإسلام وهي الكنيسة والصهيونية وتخوف الغرب من نهوض الإسلام .

فإذا ذهبنا ندرس ظاهرة اتساع انتشار الإسلام فى الغرب لا تخطئنا الحقائق الآتية :

(١) إن الذين يدخلون الإسلام فى الغرب ليسوا من عامة الناس ولكن من خاصتهم فهم على حظ كبير من الثقافة وفيهم مفكرون وعلماء وفلاسفة وأطباء وقسس ورهبان كانوا يدعون لدين آخر .

(٢) إن المسلمين الذين يبلغ عددهم أكثر من ألف مليون مسلم لا يخرج واحد منهم من الإسلام إلى غيره من الأديان .

(٣) لم تهدأ الحرب ضد الإسلام منذ أن أنزلت أول آية فيه ، وقد هزم الروم والفرس ثم جاءت الحروب الصليبية وجاءت التتار لتسجل هزائم أخرى .

(٤) لم تخرج أوربا من القرون والوسطى إلا بالفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية .

ولم يجد الغربيون بداً من أن يتقبلوا الكثير من مفاهيم الإسلام تحت أسماء أخرى لإصلاح مجتمعهم :

أولاً : أباحوا الطلاق بعد أن عارضوه معارضة شديدة وكان

الإسلام قد أباح الطلاق منذ أربعة عشر قرناً إذا ثبت فشل الحياة الزوجية ، وقاومة المتعصبون والمستشرقون واتهموا الإسلام بأنه يبيح للرجل أن يتلاعب بامرأته عن طريق إعطائه الحق فى أن يطلق زوجته متى شاء وتمر مئات السنين فإذا أشد الدول الأوربية تمسكاً بالكاثوليكية وهى إيطاليا وأسبانيا تبيح الطلاق الذى أباحه الإسلام وتثبت أن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثانيا : محاربه الخمور : وقد قاوم الإسلام هذا الخطر وقرر تحريم الخمر رحمة بالإنسان وليس تضييقاً عليه فلما ثبت اليوم أن أكثر من ٥٠ فى المائة من حوادث الطرق بسبب الخمور ، وعوامل أخرى فى انهيار المجتمعات بدأ الغرب يفكر فى محاربة الخمور .

وقالت أبحاث الأطباء أن إدمان الخمور له تأثير تدميرى شامل خاصة على الكبد وتشكو الدول الأوربية الخمور وأضرارها وقد تضاعف عدد مدمنى الخمور فى السنوات الأخيرة .

ويقول (ليزبات روثنى وفاطمة الشرقاوى) فى كتاب ظهر فى فرنسا تحت عنوان (من دين لآخر - اعتناق الإسلام فى الغرب) :

ما برح الإسلام يلاقى صدى طيباً فى نفوس الغربيين فيدخلون فيه عن طواعية بعد ما أفلست كل النظريات فى إسعادهم ولم تعد أديانهم قادرة على إطفاء ظمأهم الروحى ، وقد فقدت المسيحية الكثير ولم تبق كما هى وعجزت عن فهم الحياة التأملية التى هى عندهم أهم شىء .

إن إضاعة الجانب التأملى هو الذى أودى بالكنيسة الإنجليزية وهو مكمن فشل المسيحية وقد عثر على هذه الحياة فى التصوف الإسلامى حيث يوجد الحنان والحب فضلا عن أن كثيراً من مقولات المسيحية قد

أفقدتها القداسة وفى مقدمة ذلك الخطيئة الأولى وألوهية المسيح والطلاسم التى لا فك لرموزها ، كما فقدت الكنيسة هيبتها وباعت شرفها حتى وصل الأمر إلى تأجير كنائس فى إنجلترا للشاذين جنسياً وعلى عكس ذلك لم يتغير الإسلام أبداً ، ومن هنا كانت قوته الراسخة ، ولقد كان القرآن هو آخر وحى ، ومحمد ﷺ هو خاتم الرسل ، والقيمة التجمعية للإسلام تجعل الفرد مرتبطاً بمجموعة عالمية ، فضلا عن أنه منهج ونمط حياة وليس إيمانا فقط .

وتتحدث « الصنداى تلغراف » البريطانية الأسبوعية (غرة رجب ١٤٠٤) عن ظاهرة إقبال سكان أوربا على الدخول فى دين الإسلام أفواجاً بعد أن بدأو يثبتون حقيقة الإسلام وجوهر القرآن وما هو الدور الذى يقوم به المسلمون فى سعادة البشرية والأخذ بيدها إلى مدارج الرقى الروحى والمادى والمعنوى .

وقد أشارت الصحيفة إلى تزايد عدد المسلمين بنسبة كبيرة خلال السنوات العشر الماضية وأنه قد جاوز المليون نسمة فى بريطانيا (كانوا ٤٠٠ ألف عام ١٩٧٢) وأن نفس الزيادة قد حدثت فى فرنسا وفى ألمانيا الغربية حيث وصل عدد المسلمين فى البلدين (٤ ملاين وخمسمائة ألف) بعد أن كانوا من عشر سنوات مليونين .

ويتحدث زعيم حزب الجبهة الوطنية فى فرنسا عن الخطر الإسلامى الزاحف على فرنسا حيث قال فى برنامج (ساعة الحقيقة) إن الخطر القاتل المتمثل فى الانفجار السكانى للعالم الإسلامى العربى يوشك أن يغزو فرنسا ويحتل أراضيها .

وتقول الصحيفة : إن انتشار الإسلام على نطاق واسع مع إشراقة

القرن الخامس عشر الهجرى واتساع دائرة المد الإسلامى ليس لها سبب مباشر إلا أن سكان العالم غير المسلمين قد بدأو يتطلعون إلى معرفة الإسلام والقراءة عنه ومن هنا بدأت تلك الشعوب تدرك كل الإدراك أن الإسلام هو الدين الأسمى الذى يمكن أن يتبع وإنه الدين الوحيد الصالح لحل كل المشاكل البشرية القادرة على إنارة طريق المستقبل أمام الشعوب البشرية وأنه الدين القوى الذى قاوم كل المحاولات التى حاولت أن تحدّ من انطلاقه الفكرى عبر القرون الماضية .

ألم يصل إلى أوربا الشرقية حتى أبواب فيينا حتى عاصمة فرنسا ؟ ألم يصل المد الإسلامى إلى الأندلس ثم عبر فرنسا إلى بلدة « مسانس » على بعد ١٢ كيلو من جنوب باريس عاصمة فرنسا الحالية ؟ ألم يصل الإسلام إلى سويسرا وجنوب ألمانيا ويسيطر ما بين إيطاليا وفرنسا وألمانيا والنمسا ؟

إن شعوب القارة الأوربية التى طحنتها الصراعات المذهبية والفكرية والنظريات الأيدلوجية والأساليب العنصرية أصبحت فى أمس الحاجة إلى من يقدم لها القرآن الكريم .

وفى مختلف بلاد العالم نشهد اليوم تفهماً لتعاليم الإسلام ومفاهيم من أرض اليابان وكمبوديا وكوريا والفلبين .

إن قوة القرآن قادرة على أن تقهر كل الأعداء عبر المسيرة الإسلامية .

- وفى تقرير عن الإسلام فى بريطانيا يقول :

بينما انجلترا تترنح فى طريقها نحو السقوط وكما يقول (ديلى

ميل) فإن الإسلام يدعى أن لدية خير طريق للحياة لا إسراف فى الترف ولا معاقرة ولا مخدرات ولا فناً إباحياً ولا أدبا داعراً ولاعهراً ، إن بريطانيا اليوم تواجة مفترق طرق هو أشد خطراً علينا من الحربين العالميتين قبل جيل من الزمان ثم الفوز فى معركة بريطانيا فى سماء إنجلترا .

هذا المقال شهادة من أهل الغرب أنفسهم على اكتساح الإسلام لأوربا على رغم أنف الكنيسة العالمية التى لم تدع وسيلة من الوسائل إلا استعملتها للقضاء على المد الإسلامى لا فى الغرب فحسب بل فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ولكن الإسلام الذى يخاطب العقل قبل العاطفة ويناسب الفطرة البشرية يأتى الآن ليقنع الوثنيين الذين أصبحوا فى حيرة من أمرهم أمام طغيان المادة فى حياتهم أن الإسلام هو الحل الأنسب لجميع مشاكلهم المعاصرة وقد اعتنق الإسلام من مشاهير الغرب .

رجاء جارودى ، يوسف إسلام ، موريس بوكاى ، كوستر النجار ، فاتش موتتى ، يترانو ميشان ، ميشيل كودكنونير عالم دراسات الضوء مما أثار قلق الكنيسة والصهيونية العالمية على مستقبل سيطرتها على الغرب .

لقد أصبحت الكنيسة العالمية فى حيرة قاتلة على مستقبلها بعد أن بدأ الإسلام يزاحم النصرانية فى عقردارها .

- وتقول مجلة تايم الأمريكية :

إنها شمس الإسلام تشرق من جديد ولكن هذه المرة تعكس كل حقائق الجغرافيا فإنها تشرق من الغرب ، من أوربا تلك القارة العجوز .

لقد بدأت المآذن والقباب ترتفع لتزاحم أبراج الكنائس فى باريس ولندن وروما وبرلين الغربية حيث تعج المساجد بالمصلين الذين يتوجهون فى صلاتهم إلى مكة المكرمة وصوت الأذان مع كل صلاة يقف شاهداً على أن الإسلام يكسب كل يوم أرضاً جديدة وأتباعاً جدداً وجدوا فيه الطريق .

وكل ذلك يؤكد أن الإسلام جاء إلى أوربا اليوم ليبقى ويستمر ويطيب له المقام فإن أكثر من سبعة ملاين فى أوربا اليوم (وحيث يضم فرنسا ألف مسجد وزاوية) .

ورغم أن مسلمى أوربا وفدوا من بقاع مختلفة من الهند وباكستان وتركيا والجزائر والمغرب وتونس ومصر إلا أنهم يشعرون جميعاً أن هناك رباطا وثيقا يوحدهم ومعظمهم من أتباع المذهب السني .

وجملة القول أن ظاهرة إسلام الأوربيين ترجع أساساً إلى إفلاس الحضارة الغربية من القيم والإغراق فى الحياة المادية حتي الأذقان مما دفع كثيراً من العقلاء إلى البحث عن مخرج من هذه الحضارة المدمرة فعندما عرفوا الإسلام وجدوا فيه ضالتهم حيث انعتاق الروح كما قال حامد خليفة إمام مسجد لندن ، وهذا يؤكد عدة حقائق أساسية نراها فى أحاديث الرسول ﷺ منها غربة الإسلام وأنه يعود إلى الظهور بين أقوام غرباء عنه من غير أهله فيجعل الله – تبارك وتعالى – له أمة قوية جديدة .

(٢) إن هذا الدين هو دين الله – تبارك وتعالى – وصدق رسول الله ﷺ { ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يبقى بيت من مدر ولا وبر إلا ويدخله الله هذا الدين يعّز عزيزاً أو يذل ذليلاً } .

(٣) تؤكد قوانين الحضارات والأمم أن الحضارة التى تخرج عن طاعة الله لأبد أن تسقط وها هى الحضارة الغربية تتهاوى وتسقط بشهادة

علمائها ومفكريها كما سقطت الحضارة الرومانية وغيرها .

ويتحدث بعض العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية فى الغرب : أنه بالرغم من المناخ الذى أفرزته الحروب الصلبية والجهود المستمية لتشوية صورة الإسلام فإن المراكز الإسلامية تستقبل يوميا كثيراً من الذين يعلنون إسلامهم من مستويات وأعمار شتى ، وأن القضية الإسلامية أصبحت تتحرك بأبعاد عالمية فهى أكبر من أن تكون محصورة فى جماعة أو جيش أو قوم أو لون فمن الخطأ ربط الإسلام بجنس أو قوم أو جماعة فالإسلام أصبح موجوداً ومطروحاً فى كل مكان وعلى كل إنسان على الرغم من الجهود التى يبذلها اعداؤه للحيلولة دون انتشاره .

ومما يذكر أن أوربا فى استعمارها الحديث للعالم الإسلامى ومن قبل بالحروب الصليبية استماتت تاريخياً لكسر شوكة الإسلام فى منبته وحاولت إقامة الحواجز والسدود فى وجهة حتى لا يصل إليها بدافع الأحقاد التاريخية والصليبية لكنها عجزت فكرياً وإن انتصرت عسكرياً والحركة الاستشراقية فى دراستها لتراث المسلمين وتاريخهم تشكل دليلاً فكرياً وثقافياً وطليعه متقدمه للاستعمار ، كل هذا ساعد على حجب العقل الأوربى عن نور الإسلام وساهم باستعصائه وتعصبه ضد الإسلام والمسلمين حيث لم يبق لأوربا من النصرانية إلا صور التعصب والحقد ضد الإسلام ولم يبق فى ذهن المسلمين عن أوربا إلا ما أورثه هذا الحقد من الاستعمار وصور التمزق والتجربة التى تمت ممارستها فى عالم المسلمين.

وإذا تلفتنا نحو الشاطىء الآخر وجدنا التيار الإسلامى يتسع داخل روسيا ويقلق السوفيت فى آسيا الوسطى .

وتقول التقارير الرسمية : إن العائلات والعشائر الأسيوية الكبرى

تقاوم الدعوة السوفيتية وتزاول الشعائر الإسلامية ، وفى آخر الإحصائيات ازدياد عدد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى بصورة كبيرة مما يشكل قلقاً بالنسبة للحكومة السوفيتية فقد بلغ تعداد المسلمين (٥٦ مليونا) وهى نسبة تعادل ٢٠٪ من السكان ويخشى قادة روسيا من انتماء المسلمين السوفيت الظاهرى للماركسية وانتمائهم الحقيقى والعميق لمبادىء الإسلام خاصة وأن المناخ الجديد قد فتح للمسلمين حرية التعبير والاعلان عن عقيدتهم (ويتركز المسلمون في ٦ جمهوريات فى الجنوب) وتشمل جمهوريات أوزبكستان أعلى نسبة للمسلمين حيث تضاعف عدد المسلمين بها من ٨ ملايين عام ١٩٥٩ إلى ٢٠ مليوناً عام ١٩٨٩ .

أما فى الولايات المتحدة فإن شمس الله تشرق على أمريكا فما يمر يوم دون مسلم جديد حيث يبلغ عدد المسلمين اليوم أربعمائة مليون مسلم معظمهم من المهاجرين .

ويقرر المهندس نور الدين دوركى رئيس منطقة دار الإسلام بولاية نيو مكسيكو بالولايات المتحدة : استقبلنا فى السنوات الخمس الماضية مئات من الأمريكيين الذى جذبتهم أخلاق المسلمين ، كما صورتها لهم وسائل الإعلام وكانت الفرصة متاحة لمعايشة الناس والبيئة وطريقة الحياة الإسلامية .

وفى كل مرة يطرحون علينا أسئلة جديدة ويستمعون إجابات عليها ويجدون احترام الضيف والمعاملة الطيبة والأخلاق الحسنة وبشاشة الوجة فما كان منهم إلا أن ينطقوا بالشهادتين ويشهرون إسلامهم وتؤكد توسع ظاهرة المعتنقين للإسلام فى الغرب على وجود ظمأ وجوع شديدين للروحانية وتطلعات كثيرة لهذا الأمر الذى يجدونه فى الإسلام ، ومن هنا

نجد التهديدات التى تعلنها السلطات السوفيتية بأنها ستتخذ إجراءات الحد من معدل التناسل بالجمهوريات الإسلامية رغم الحملة التى تنظمها السلطات فى مختلف أنحاء الأتحاد السوفيتى لتشجيع النسل وقد أعلنت وكالة تاس أن معدل زيادة المسلمين فى جمهورية طاجكستان الإسلامية يعتبر أعلى معدل فى الاتحاد السوفيتى ، وهكذا نجد أن القضاء على النسل بين المسلمين من الأهداف الاستراتيجة للشيوعيين .

ولكن : هل تمضى المسيرة هادئة أم أن الأحقاد ما تزال تنطلق بالتآمر فى كل مكان لتنزع شوكة الإسلام .

إن الاهتمام بظاهرة الانتشار المطرد للصحوة الإسلامية يدفع إلى محاولات كثيرة ويكتسى بطابع خوف وريبة وقدر ملموس من الاستنكار والضيق والتأفف فهم يتخوفون من ضخامة قوة التناسل لدى أسر الجاليات الإسلامية ويتخوفون من نشاط المنظمات الإسلامية ذات الأساليب البارعة ، ويتخوفون من تزايد عدد المسيحين واللادينيين الذين يعتنقون الإسلام (٥٠ ألف امرأة ألمانية أسلمن فى السنوات الأخيرة بعد زواجهن برجال المسلمين) .

وهناك محاولات متعددة ترمى إلى :

(١) إذابة الجماعات الإسلامية فى المجتمعات الأوربية .

(٢) احتواء الذرارى الجديدة من أولاد المسلمين فى المعاهد الإلحادية . .

ومن الانحرافات التى يجد المسلمون أنفسهم مضطرين لمواجهتها : ذلك التعصب المقيت من جانب بعض الاتجاهات العنصرية خاصة فى

فرنسا حيث ساهمت الحملة العنيفة التى قادها بعض رجال الأحزاب فى إثارة روح الكراهية ضد الأقليات ومنها الأقليات الإسلامية .

وتخطى عملية تنشئة أبناء الجاليات الإسلامية وبناتهم التنشئة الإسلامية باهتمام كبير . حيث أن المحافظة على أبناء المسلمين الجدد من خطر الإذابة فى المحيط الغربى هى من أخطر ما يتعرضون له .

فإذا ذهبنا نستعرض أحوال المسلمين وجدنا أخطر ما يواجههم هو محاولة تذويب الذاتية الإسلامية فى فلسطين المحتلة والهند وأفريقيا وأندونسيا ، حيث يواجه المسلمون تحديا خطيراً هو محاولة صهرهم فى غيرهم ليفقدوا تميزهم الخاص ويجرى ذلك من خلال أمور كثيرة منها:

(١) حملهم على مناهج الغير وحرمانهم من المناهج الإسلامية .

(٢) تدمير معالم حضارتهم ومساجدهم وإحياء الحضارات القديمة فى مناطقهم .

وهناك نشاط ملحوظ فى شمال الهند بصفة خاصة للحركات الإحيائية للدين الهندوسى وحماس الكهنة فى نشر تقاليدهم ودعوة الناس إلى اتباع الطقوس الهندوسية وجمع التبرعات لتمويل حركة الاستيلاء على المساجد التاريخية الكبرى التى يُدعى أنها كانت معابد هندوسية قبل الفتح الإسلامى .

وهكذا نجد تهويدا فى فلسطين وهندكة فى الهند كما تجرى عمليات تعقيم للمسلمين في مناطق مختلفة (كالهند فى الماضى وتايلاند الآن) فى خطة لتحديد النسل .

وتعد المؤامرة على تناسل المسلمين والحد منه من المخططات

الخطيرة التى تنفذ الآن فى المناطق التى نجد المسلمين فيها أقلية بينما تتنامى العناصر الأخرى سواء بالهجرة أو بالولادة .

والمؤامرة مرسومة بعناية شديدة من خلال تأخير زواج المسلمين وإطالة فترة التعليم ، وعدم تمكين الشباب من الزواج المبكر وقلة الموارد وارتفاع المهور مما يجعل مجموعة كبرى من الشباب فى سن الزواج غير قادرين على إنفاذه ومن ثم يلجأون إلى الوسائل الأخرى الشاذة وتنتشر الفاحشة ويضطرب كيان الأسرة من أبناء وفتيات فى سن الزواج ومن عوامل إغراء كثيرة محيطة سواء من أجهزة التسلية والترفية أم الاختلاط فى المدارس والجامعات مما يدفع إلى وجود إغراءات على اللقاء المحرم وما يتبعه من أحداث تفقد فيها فتيات كثيرة عفافها وبكارتها بل أن هذه الأقراص والعقاقير قد فتحت الباب واسعاً أمام جريمة الزنا دون خوف من نتائجها مع استعمال حبوب منع الحمل وشراء أنبوبة الدم الحمراء التى تستعمل بديلاً للبكاره وذلك بالإضافة إلى عمليات الإجهاض وما يؤدى إلى أمراض سرطان الثدى واختلال التوازن الهرمونى بجسم المرأة وحدوث الإلتهابات بالجهاز التناسلي للأنثى فضلا عن الاتجاة الآخر المشين للرجال فى التكافل بالرجال مما هو محرم شرعاً « اللواط » .

هذه الصورة من البلاء يرسمها النفوذ الأجنبى ليقلل من نسل المسلمين وليؤخر عمليات الزواج ويحول دون إيجاد الموارد والأوضاع الصالحة للزواج المبكر .

وهكذا يمر الإسلام بمرحلة من أخطر المراحل فى تاريخه الطويل وهو يُحارب اليوم من منظمات عالمية تستهدف النيل منه كما أنه يحارب من بعض أبنائه المنحازين إلى أعدائه .

الفصل الحادى عشر

تاريخ الإسلام

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

ما تزال خطة تزييف تاريخ الإسلام والعرب لحساب القوى المتسلطة (الصهيونية والشيوعية والغرب) من الأعمال الضخمة التى قام بها الاستشراق الغربى المسيحى واليهودى والتى لم تستكشف بعد أبعادها الواسعه ، ففى كل يوم نجد خيطاً جديداً يضاف إلى سابقة فتبدو الصورة أشد خطراً مما كان متصوراً من قبل ، ولا ريب أن المثقفين المسلمين فى حاجة إلى متابعة الكشف عن هذه الخطط والأبعاد حتى يعرفوا ما يراد بهم ومدىً خطة الاحتواء ، ومدى زيف تلك الشبهات والسموم التى أصبحت كالمسلمات بينما هن من افتراءات الإسرائيليات الجديدة التى جددت الإسرائيليات القديمة وزادت عليها .

ومنطلق البحث أنه قبل إبراز فكرة الصهيونية فى العصر الحديث لمخطط متجدد ومنبعث عن التوراة التى كتبها حكماء اليهود إبان السبى البابلى و (التلمود) الذى جاء بعد تدمير الرومان للقدس .

كان هناك هذا المخطط هو بروتوكولات صهيون التى عرفت لأول مرة عام ١٨٩٧ وفى خلال إعداد هذا المخطط كانت هناك محاولات جبارة تعمل على وضع مفهوم الصهيونية التلمودية فى داخل كتب التاريخ والموسوعات العالمية ، وإدخالها فى مناهج المدارس والجامعات الغربية ومعاهد الإرساليات فى العالم الإسلامى ، وقد تمت هذه المحاولة الخطيرة بواسطة مجموعة ضخمة من المفكرين الغربين الذين احتوتهم الصهيونية : (شلوسر ، بروكلمان ، رينان ، دوركايم ، دوزى ، إلخ) ، وذلك بالإضافة إلى الاستشراق اليهودى الصهيونى : مرجليوث ، وجولد سيهر ، وبرنارد لويس إلخ .

وقد حاولت هذه الخطة تحقيق عدة اهداف :

أولاً : ابتكار فكرة السامية التى نسبت اليها أمجاد التاريخ العربى القديم قبل الإسلام وسلبه من اصحابة الحقيقين (وبخاصة اسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وأبناؤه واحفاده) وإضافة هذا المجد إلى مصدر غامض ليس له سند علمى ويستمد مصدره الأساسى من التوراة التى كتبها اليهود بأيديهم وليست التوراة الحقيقة المنزلة على موسى - عليه السلام - .

وذلك بهدف إشراك اليهود مع العرب فى هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أى اتصال بإنشاء هذه الحضارة ، ويتبع هذا الخطر ، إيجاد صلة ما بين العربية والعبرية على النحو الذى حاوله الكتاب الذين كتبوا ما أسموه (تاريخ اللغات السامية) وقاموا بتدريسه فى الجامعات وهم : إسرائيل ولعتشون ، وشاخت ، ثم الدكتور مراد كامل .

ثانياً : محاولة التشكيك فى رحلة إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز وإقامة إبنه إسماعيل وزوجته هاجر بمكة ، وهذا يبدو واضحاً بين تجاهل التوراة لهذه الواقعة التاريخية ومحاولة اثارة الشبهات فيها وقد ردد الدكتور طه حسين هذا القول فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) .

ثالثاً : محاولة اعتبار التوراة مرجعاً للبحث العلمى مع أن شهادات كل علماء الغرب تؤكد ما نراه - نحن المسلمين - من أن التوراة الموجودة الآن قد كتبها أحبار اليهود منها ما كتب أيام السبى البابلى ، ومنها ما كتب فى المنفى بين النهرين ، ومنها ما كتب قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون .

رابعاً : محاولة خلق تصور زائف بأثر اليهود فى الجزيرة العربية والأدب العربى .

خامساً : محاولة إيجاد ترابط بين العرب واليهود والقول بأنهما أبناء عمومة وذلك كله يستهدف التمهيد للدعوة إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

سادساً : إعلاء شأن (إسحق) على (إسماعيل) وهما ابنا إبراهيم – عليه السلام – وأكبرهما إسماعيل الذى هاجر به وأمه إلى مكة والذى أقام معه القواعد من البيت الحرام والذى امتحن بذبحة وجاءه الفداء من السماء .

والهدف هو إخراج أبناء إسماعيل من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه ، وقصر الوعد على أبناء إسحق وإسرائيل تحت اسم أسطورة (شعب الله المختار) .

هذه أطراف المؤامرة الخطيرة لتزييف تاريخ الإسلام والعرب قبل الإسلام لحساب الصهيونية التلمودية ، وقد جرى تطعيم دوائر المعارف وكتب التاريخ ومناهج المدارس والجامعات بهذه المفاهيم واستكتاب عشرات الكتاب لبحوث متعددة متنوعة تدور حول هذه الشبهات لخلق هالة مضلله لتثبيتها فى الأذهان وتكاد فكرة (السامية) أن تكون أخطر هذه الشبهات وأسوأ المحاولات التى اتخذت لتزييف تاريخ الإبراهيمية الحنيفية : ذلك الأثر الضخم فى الجزيره العربية والعرب جميعاً منذ ذلك الوقت البعيد وعلى امتداده إلى رسالة محمد ﷺ .

وهى عبارة أو مصطلح لم يرد مطلقاً فى كتابات العرب والمسلمين على مدى التاريخ ، وقد استمدت أساساً من نص من نصوص التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار وفى ظل تقييم وهمى للأجناس البشرية مستمد من أسماء أبناء آدم أبى البشر (سام وحام ويافث) وقد برز هذا المعنى فى

ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوربا إبان استعلاء نزعة العنصرية الأوربية التى قسمت العالم إلى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الآرى صانع الحضارة الذى وصف بكل صفات العنصرية والعظمة والاستعلاء على البشر وخضوع الأجناس الأخرى إليه ، وكان هذا التنظير الذى ألبس ثوب العلم إنما يستهدف إعطاء الاستعمار (مبرراً) علمياً لسيطرته على الأمم المغلوبة الملونة غير الآرية الأوربية .

غير أن المحاولة التى عملت على أن تضع عبارة (السامى والسامية) بديلاً للعرب والعربية أو للإبراهيمية الحقيقية كانت محاولة ماكرة خطيرة استهدفت حجب أمجاد التاريخ القديم عن العرب وإلصاقها لاسم قديم لا يعرف التاريخ الصحيح له مصدراً واضحاً ، والغربيون يعرفون أن التوراة الحالية مشكوك فيها ولذلك فإن الاعتماد عليها فى إقامة نظرية تعطى كل هذا القدر من التوسع والنمو والسيطرة فى دوائر الثقافة والعلم والجامعات هو أمر لا أساس له من منهج العلم الصحيح ، ولقد كانت اليهودية الصهيونية من وراء هذه النظرية فى سبيل طمس التاريخ العربى السابق للإسلام وتزييفه وفرض دور وهمى لليهود فى الحضارة وفى الجزيرة العربية قبل الإسلام وإحياء اللغة العبرية وإعطائها رصيداً زائفاً من الصلة باللغة العربية هو أكبر بكثير من حجمها الطبيعى ، وتدور فكرة السامية حول القول بأن هناك اصلاً واحداً مشتركاً للعرب واليهود ومحاولة إعطاء العبريين أثراً ومكانة غير صحيحة فى حضارات الشرق القديم ، وقد كان (شلوسر) هو أول كاتب غربى استعمل مصطلح السامية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واعتمد فى هذه التسمية على نص من التوراة ، وقد كانت الصهيونية وراء هذه الفكرة ومن ثم فقد اتسع نطاق هذه المقولة وأقام عليها الكتاب

الموالون للصهيونية والاستعمار ما أطلق عليه اسم (علم الأجناس) ، ولغياب الفكر الإسلامى فى هذه المرحلة فقد اتسع نطاق الفكرة الإسرائيلية وسيطرت على مناهج الجامعات ، ودراسات الثقافة جميعاً ، وفى كلية الآداب بالجامعة المصرية تقررت دراسات اللغات السامية لتمكين اللغة العبرية وقام على هذه الدراسات مستشرقون يهود فى مقدمتهم يوسف شاخت وإسرائيل ولفنسون اللذان أخذا يخدعان شباب المسلمين بقولهم إن العبرية ليست سوى عربية مقلوبة ، وأن العرب أنما اتخذوا اسمهم من (عبرية) التى هى فى العبرية بمعنى الصحراء وكان الهدف هو خلق مفهوم زائف للصلة بين العرب واليهود من ناحية وبإعطاء اليهود مكاناً زائفاً فى مجال الآداب والعلوم .

وقد كانت مقولة السامية هذه موضع نظر الباحثين العرب والمسلمين منذ وقت طويل فلم تفتهم تلك الخطة الماكرة التى استهدفت اعتبارها ، فهى من مناهج الدراسة الجامعية وإعطاء شبهاتها صبغة المسلمات وقد جاء ذلك فى الوقت الذى حمل فيه الدكتور طه حسين لواء الدعوة إلى تجديد دراسة الآدب وفق المناهج الحديثة والبحث فى الشعر الجاهلى فقد كان الهدف من ذلك هو القول بأن اللغة العربية لم تكن لغة واحدة فى الجزيرة العربية وأنه هناك لغة فى الجنوب ولغة فى الشمال وهى محاولة مضللة تستهدف التشكيك فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام وإثارة الشبهات حول نموها واتجاهها إلى اتخاذ مكانها الذى أهلها لتكون لغة القرآن ولسان الإسلام .

كذلك فإن الدكتور طه قد هيأ لشباب يهودى استقدمهم من فرنسا إعداد دراسات متعددة حول اليهود فى جزيرة العرب وتاريخ اللغات السامية ليحشد فيها كل تلك المخططات التى اعدتها الصهيونية لتزييف

التاريخ الإسلامى وبذلك استطاعت الصهيونية العالمية أن تحمل نظريتها إلى قلب الفكر الإسلامى والأدب العربى لتضرب به ذلك المفهوم الأصيل الذى عرفه المسلمون واستوعبته آثارهم وتراثهم .

وقد عاش الدكتور طه حسين حياته كلها يحاول إقناع المسلمين والعرب بأن لليهود فضلاً على أدبهم وتاريخهم وتراثهم ولقد عمل باكراً لتحقيق هذا الهدف حين أعلن عن أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس حقيقة تاريخية وإن ورد ذلك فى القرآن .

وقد كذبته الحفريات الأثرية ومن عجب أن يؤمن طه حسين بالتوراة فى شأن السامية ويشكك فى القرآن فى شأن إبراهيم وإسماعيل وقد دعا طه حسين فى محاضراته المتعددة المسجلة فى مجلة الجامعة المصرية وغيرها إلى ما أسماه فضل اليهود على الأدب العربى وأنهم قالوا شعراً فى الدين وهجاء العرب وأثبت لهم سابقة فى الجاهلية وردد أفكار إسرائيل ولفنسون فى كتابة (اليهود فى جزيرة العرب) الذى قدمه طه حسين بعبارات التمجيد ونقده الدكتور فؤاد حسنين نقداً علمياً فى مقدمة كتابه الذى ترجمه عن الدكتورة سجريد هونكه (شمس الله تشرق على الغرب) .

ولا ريب أن الهدف هو طمس الرابطة بين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ فى القرن السادس الميلادى وبين دعوة إبراهيم - عليه السلام - التى بدأت ١٧٥٠ قبل الميلاد ، وذلك أن إقامة إبراهيم ابنه إسماعيل فى قلب الجزيرة العربية فى مكة وبناء الكعبة علامة خطيرة فى تاريخ العرب وتاريخ العالم كله ولها تأثيرها الواسع على النظرية الزائفة التى تدعو إليها الصهيونية العالمية ، ولقد تجاهلت التوراة المكتوبة بأيدى الأحبار

ذهاب إبراهيم - عليه السلام - إلى الحجاز وبناء البيت مع ابنه إسماعيل وقد عمد اليهود إلى طمس حقيقة وعد الله - تبارك وتعالى - لإبراهيم فجعلوه قاصراً على إسحق ، وتجاهلوا ابنه الأكبر إسماعيل وحاولوا إخراجه وإخراج أبنائه الإثنى عشر من حقوق الوعد الذى تلقاه إبراهيم من ربه .

وابتكروا أكذوبة شعب الله المختار القاصر على أبناء إسرائيل (يعقوب) والواقع أن تاريخ هذه المنطقة منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - ١٧٥٠ قبل الميلاد هو تاريخ الحنيفية الإبراهيمية العربية التى انطلقت من الجزيرة فى موجات متوالية امتدت من حدود الفرات إلى أفريقيا حتى المغرب ، وأن فكرة السامية التى اصطنعها اليهود لحساب الصهيونية ورددها طه حسين وقررها للدراسة فى الجامعات تحت اسم (اللغات السامية) لم تكن شيئاً معروفاً لدى العلماء والباحثين العرب وغيرهم ولا توجد أى إشارة إليها فى أى كتاب من الكتب أو حفرية من الحفريات أو الأسانيد المكتوبة على الأعمدة أو الآثار القديمة وأن جزيرة العرب أخذت تسمى باسم العروبة الصحيحة فى كتب اليونان والرومان وأسفار العهد القديم منذ ألفين وخمسمائة سنة أى منذ ألف سنة قبل الإسلام وتدل على هذا النقوش والمدونات القديمة وأن اللغة العربية هى اللغة التى تكلم بها سكان الجزيرة قاطبة والنازحون منها منذ ألف وخمسمائة سنة بقطع النظر عن تعدد لهجاتها أو بعدها قليلاً أو كثيراً عن اللغة الفصحى .

ولقد واجه تاريخ الإسلام فى خلال هذه المرحلة التى تمتد إلى أكثر من قرن من الزمان مؤامرات خطيرة ومحاولات مستميته فى سبيل التشكيك فيه وإثارة الشبهات حوله وتفسيره تفسيراً مادياً أو إحياء جوانب الضعف

ومؤامرات الخصوم والادعاء بأنها حركات عدل وحرية ، كل هذا جرى عن طريق الاستشراق الغربى والماركسى واليهودى كل فيما يتجة اليه .

ويؤكد هذا حقيقة اساسية لا سبيل إلى إنكارها أو تجاوزها هى « محاولة اطفاء نور التاريخ الإسلامى » المتنكرة للعطاء الإلهى فى الفتح والنصر وهو ما يدهش خصوم الإسلام الذين ينكرون الجوانب الروحية والمعنوية وقوانين النصر التى قدمها الإسلام للمسلمين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله - تبارك وتعالى - وقدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمة الله .

وهذا هو السر الخطير من وراء الدعوة إلى كتابة السيرة النبوية وتاريخ الإسلام كتابة عصرية أى علمانية لتخفيف هذا الوهج العظيم الذى يجب أن يملأ قلوب المؤمنين حين يقرأون وقائع تاريخهم ، ذلك أنه الكتابة العصرية إنما تفرغ هذا التاريخ من جوهره وتطفىء نوره حيث تنكر المعجزات والجوانب الغيبية ، والإعراض عن المواقف ذات الصلة بالإيمان والعقيدة واليقين والتقوى وقوانين الإسلام فى النصر .

﴿ إن يكن منكم مئة صابره يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ﴾ .

لقد حاول الكثيرون أن يصموا تاريخنا الإسلامى بكثرة الفتن والحروب والمكايد والاضطرابات ، غير أن النظرة الصحيحة إلى التاريخ من خلال عوامله العديدة تعطى البيان الواضح عن أن هذه الوصمات لا أصل لها صحيح ، وأن كل ما فى الأمر أن هناك تفاعلات فى المجتمع الإسلامى العربى كانت تأخذ طريقها ، ولا بد أن تأخذ طريقها ، فى ذلك المجتمع وأن هذه التفاعلات سنة من سنن الله - تبارك وتعالى - فى

المجتمعات ولن نجد لسنة الله تبديلاً ، وهى تفاعلات تحدث فى كل امة ، بل أن الأمم الأخرى كانت تتلقاها بعنف أكثر مما تلقاها به المسلمون والعرب ، وتاريخ الأمم ممزوج بالحروب والفتن والأضطرابات أكثر من تاريخ العرب والمسلمين فهذا تاريخ فرنسا والمانيا من الثورة الفرنسية وأن تاريخهما ملىء بالحروب : حروب الثورة الفرنسية ، وحروب نابليون ، وحروب ١٨٧٠ وحرب ١٩١٧ وحرب ١٩٣٩ كل ذلك فى مدى لا يتجاوز قرناً ونصف قرن والضحايا التى وقعت فى هذه الحروب بتجاوز أضعافاً مضاعفة ضحايا الحروب فى تاريخنا كله » .

تقول هذا فى مواجهة تلك الحملات المكثفة على تاريخ الإسلام بهدف إظهاره فى صورة منتقصه وذلك بتصيد بعض الحوادث الفردية والفرعية من تاريخ طويل ضخم لابرازها مع تجاهل العطاء الوافر المتصل فى احداثه وموافقة المتصلة القائمة على الإيمان والبذل والصدق والوفاء والسماحة .

ونحن هنا لا ندافع عن تاريخ الإسلام ولكنا نود أن نصحح مواقفه فنقدمه للمسلمين على نحو صحيح بكل معطياته الحقيقة إيجابية وسلبية ، أما الإيجابية فهى تعطى الثقة فى النفوس بعظمة الشريعة الإسلامية وقدرتها على العطاء ، أما السلبية فسيستفاد من تجاربها فى المستقبل ، ولا يغض ذلك من أمر الإسلام كمنهج شيئا ، ذلك أن التجربة التاريخية هى تجربة بشرية فيها الخير والشر والحق والباطل على السواء .

ولكن الأمر الذى يجب التنبه اليه دوماً هو تآمر القوى المتربصه بالإسلام على مدى تاريخه كله من أجل هدم منهجه وتمزيق جبهته وتسليط أصحاب الدعوات الهدامة والباطنية على المسلمين وإزالتهم عن مواضع

القيادة والحركة .

ومن هنا فقد كان الاستشراق والتبشير بكل مخططاته حريصا على أن يقدم هذا التاريخ من وجهة نظر مضللة حتى لا يتعرف المسلمون على الحقائق ولا يتمكنون فى مقتبل أيامهم من تحامى الأخطار .

يقول الشيخ محمد الغزالى : إن هناك إخفاءً لا أدرى عن غباء أو تعمد لدور الصليبية العالمية فى مهاجمتنا على امتداد تاريخنا كله بدءاً من مؤته وتبوك إلى أن انهارت الخلافة التركية فى القرن الرابع عشر إلى الآن فلماذا لا نبرز هذه العداوات فى أثناء تدريس التاريخ؟ ولحساب من يتم إخفاؤها وقد صاحب الغزو العسكرى الحديث نشاط تبشيرى واستشراقى هائل ؟ ولا يجوز اهماله ولا الغض عن خطره ، وقد كتب كثيرون فى هذا كتباً يجب عرضها على نطاق واسع حتى تحصن الثغرات الكثيرة التى يتسلل منها الغزو الثقافى [فى مقدمة من كتب فى هذا الدكتور عمر فروخ ، ومحمود شيت خطاب ، ومحمد أسد (ليوبولد فايس] ...

ولكن على فهم واضح أن تاريخ الإسلام الذى نقدمه لأبنائنا فى المعاهد والجامعات على طول العالم الإسلامى وعرضه قد كتبه أعداء الإسلام وأوليائهم بهدف احتواء أبناء المسلمين فى مفهوم ينتقص الإسلام ويعلى من شأن الغرب .

ومن هنا أيضاً فإننا يجب أن نقرر فساد التاريخ المقدم لنا عن الغرب وعن حضارته على نحو يبدو فيه الاستعلاء والسيطرة ودعاوى الجنس الأبيض الذى صنع الحضارة وسيطرة أوربا على التاريخ المعاصر ، هذا التاريخ الذى كتبته أوربا لنفسها ، نحن لسنا فى جاجه إليه وليس من حقها أنه تفرضه علينا ، لأنه يحمل تصوراً مضللاً يتصف

بالاستعلاء والسيطرة ، بدعوى أن الغرب هو المبدأ وهو النهاية حيث بدأ بحضارة اليونان والرومان وانتهى بحضارة العرب بحيث اصبح (عالم الإسلام) جزءاً ضائعاً لا وجود صحيح ولا مستقبل له .

وإذا كان القوى هو الذى يكتب التاريخ وإذا كان تاريخ أوربا المكتوب (والمفروض على مناهجنا وجامعاتنا) هو تاريخ القوى المسيطرة التى استخدمت كتابة التاريخ كوسيلة من وسائل شتى لتبرير السيطرة ونحن مازلنا نخضع لذلك حتى نقبل مقولة أن الثورة الفرنسية هى التى أيقظتنا وهو ادعاء غربى باطل ولكنه موجود على ألسنة بعض الرسميين تحت تأثير نفوذ الغرب الاقتصادى المسيطر .

يحدث هذا فى نفس الوقت الذى نرى فيه مجموعة جديدة من كتاب الغرب يكشفون زيفه ويعلنون عن مسلك الإنسان الغربى العدوانى ومحاولته السيطرة على العالم الإسلامى ومن ذلك (بيار كلاستر ، غوشيه ، فوكو ، ليفى ستروس ، رولان بارت ، روجيه جارودى وآخرون) .

إن هؤلاء الغربيين يقولون - وهم صادقون - إن الغرب عرض أو حادثه عابرة وليست سلطاناً مفروضاً على البشرية إلى الأبد ، وإن هذه المقولة تشكل مفتاحاً لتصحيح تاريخ الغرب نفسه ليفهم حقيقية ، وأهم ما فى الجملة تأكيدها بأن الأصل ليس الغرب ، وأن الأصل هو الشرق وعلى وجه التحديد هو الإسلام .

ويتركز (فوكو) على تاريخ الجنس والشذوذ والجنون فى الغرب وانتقد كلور ليفى ستراذس موقف الغربيين من الثقافات الأخرى وهكذا يمثل هؤلاء الكتاب يقظه الضمير الأوربى المترهل فنحن - فى الحقيقة - محتاجون إلى أن ننمى هذه الثقة فى قلوب شباب المسلمين وعقولهم حتى

يعلموا أن تاريخهم مستمد من أكرم عقيدة وأشرف غاية للإنسانية كلها .

ولقد كان من أخطر أعمال النفوذ الغربى تكوين جبهة من المستشرقين وأتباعهم فى البلاد العربية من الشعوبيين والماركسيين والعلمانيين لإثارة جوانب من المؤامرات والخطط التبشيرية التى حاولت التأثير على الجبهة الإسلامية والقضاء عليها ومن ذلك محاولة إحياء فرق الباطنية والشعوبية المتمثلة فى حركات الزنج والقرامطة والباطنية والمزدكية والبابكية والمانوية وغيرها بدعوى أنها حركات عدل وحرية .

ولما كانت هذه الفرق والدعوات قد انتهت تماماً وكشف المسلمون زيفها إلا أن المحاولات التغريبية عمدت إلى إعادة طرحها من جديد . ولقد كانت الحركة الشعوبية قد ابتدعت من الروايات والأسانيد لتشويه التاريخ وحقائقه ، وذلك للطعن فى رموز التاريخ ورجاله وقادته حيث استهدف الدس الشعوبى السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ الخلافتين الأموية والعباسية وقد قام المستشرقون بدور كبير فى الترويج لروايات الشعوبيه والزنادقه من خلال تفسير التاريخ من وجهة نظرهم .

وقد تم تجنيد عدد كبير من المبشرين (الذين يلبسون ثياب المستشرقين) لإثارة الشبهات وقد تتلمذ على أيديهم كثير من النصارى العرب أمثال سلامه موسى وجرجى زيدان وفيليب متى ولويس عوض وكذلك بعض العرب اللامعين .

وكان هدفهم هو :

(١) إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والترك وبين العرب والفرس وبين العرب والبربر بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى .

(٢) إبراز دور الأقليات غير المسلمة .

(٣) إبراز كلمات العروبه والحضارة العربية والفكر العربى والفتح العربى بدلاً من الإسلامى .

(٤) مهاجمة المماليك والأيوبيين والعثمانيين .

(٥) محاولة إرجاع النهضة إلى الحملة الفرنسية وإلى مناهج الغرب .

(٦) تمجيد أعداء الإسلام القدامى والمعاصرين (أكبر شاه ، مصطفى كمال أتاتورك)

(٧) محاولة تصوير التاريخ الإسلامى بالصورة التى رسمتها ألف ليله وكتاب الأغانى .

(٨) تشويه شخصية صلاح الدين والظاهر بيبرس ومحمد الفاتح وهارون الرشيد والسلطان عبد الحميد .

(٩) تبنى فكرة مسبقة ثم إيجاد الوقائع المبتورة لتأييدها .

(١٠) إخضاع التاريخ الإسلامى للفكرة الليبرالية والاشتراكيه أو التفسير المادى أو الجنسى .

(١١) الاهتمام بالمؤامرات الباطنيه والإلحاديه وتصويرها بصورة المعارضة .

(١٢) دراسة تاريخنا مجزءاً ، دون ارتباط بين تفاعلاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

(١٣) بتر النصوص ، واختيار بعض الوقائع والأحداث .

(١٤) تفسير الأحداث والأعمال حسب الغرض والهوى وعن طريق الإسقاط لما فى نفوسهم من مشاعر وما فى واقعهم من فساد وانحراف .

وتتركز الأهداف الكبرى لمؤامرات الغرب على التاريخ الإسلامى فى :

أولاً : الإيقاع بين العرب والمسلمين :

هو من أخطر أهداف كتابة المستشرقين للتاريخ الإسلامى فهم يحرصون على أن يكون حديثهم عن العرب كفاتحين وغزاه للأقاليم التى دخلها الإسلام ويصورون شعوب هذه الأقاليم كما لو كانت مغلوبة على امرها وخاضعة للغرب وليس لها أى دور فى الأحداث التاريخية التى وقعت وهو تصوير خبيث يهدف إلى إثارة الحفيظة بأفكار ما كان لها من دور بارز فى نشر الإسلام والدفاع عن المسلمين (عرباً أو غير عرب) .

٢ – عندما يتناولون دور الشعوب الإسلامية غير العربية يتناولونه بطريقة تثير حفيظه العرب وتخلق لديهم شعوراً بالضيق أو البغض لإخوانهم المسلمين الذين يصورهم علماء الغرب فى صورة المبغضين للحكم أو المتسلطين على الشعوب أو القساة الأفظاظ (وصف الأتراك بالقسوة – وصف المماليك بالظلم والجهل – وصف غيرهم بالحمق والشراسة والضلال) .

والجميع يشتركون فى صفه واحدة هى اغتصاب الملك من العرب فهم مستعمرون .

٣ – محاولة القول بأن الأتراك حملوا إلى العرب التخلف والجمود بينما حمل اليهم الاستعمار الغربى الحضارة والمدنية .

٤ – إخفاء مبدأ الأمة الاسلامية الواحدة ليحل محله الشعور بالكراهية المنبعث من العصبية الجاهلية والعنصرية الذميمة لتغطى على كل ما قدمه الأتراك والمماليك للإسلام من خدمات .

٥ – إثارة النزعات العرقية وإلهاب العصبية الجاهلية بإظهار العرب فى صورة الجهلاء الذين عاشوا عالة على غيرهم من المسلمين غير العرب .

٦ – تجزئة التاريخ الإسلامى حيث يجعلون للعرب تاريخاً ولغيرهم من الشعوب تاريخاً آخر (ما فعله جلوب فى كتابه إمبراطورية العرب ، جاك ريسلر فى كتابه الحضارة العربية ، سيديو فى كتابه تاريخ العرب العام) .

٧ – العمل على تجزئة العرب بالأيدلوجيات والاتجاهات المذهبية لإثارة المنازعات وتفجير الصراعات (فضلاً عن تجزئة المسلمين بإقامة الحواجز التى تحول دون التقائهم .

٨ – البحث فى الحضارات القديمة التى كانت قائمة فى المنطقة وإحياء الشعور بالانتماء اليها لدى سكانها والحماس لها (ومن ذلك دعاوى الفرعونية والفينيقية والقرطاجيه والبربرية وغيرها) .

ومحاولة استيعاب دعوى القومية العربية على أنها دعوى مرحلية لا تتعارض مع مبدأ الوحدة الإسلامية ، فى نفس الوقت الذى جعلها الغرب تخلو من عوامل الارتباط بل تضم عناصر من شأنها أن تحدث التنافر والتضاد .

٩ – يهدف منهج الغربيين فى دراسة التاريخ الإسلامى إلى تجزئه هذا التاريخ والحيلولة دون معرفة الشعوب العربية لما بذله إخوانهم المسلمون من غير العرب من جهود على مر التاريخ لحماية العالم الإسلامى ودفع عدوان الغرب عنه ، ويعمل على منعهم من أن يستمدوا شعوراً بالزهو والثقة بالنفس وإحساساً بالقدرة على مجابهة الغرب فيما يقوم به من

محاولات لإخضاع المنطقة لنفوذه والتسلط على مقدراتها فهو يقصر التاريخ على الحقبه من الزمن التى فتح فيها العرب المنطقة التى يعيشون فيها فيسميها التاريخ العربى تارة وإمبراطورية العرب تارة أخرى ، أو حضارة العرب .

هذه الحقبة لا تتجاوز ثلاثة قرون من تاريخ الهجرة ، ظهر بعدها المسلمون من غير العرب الذين ضربوا بسهم وافر فى الحضارة وعملوا بصدق فى سبيل نشر الإسلام فى آسيا وأفريقيا ، ووقفوا بحزم فى وجه الهجمات التى شنها أعداء الإسلام من مغول وتتار وفرنجة وصليبيين على العالم الإسلامى وأحرزوا من الانتصارات الباهرة ما يستحق أن نفخر به .

وألحظ هو أننا نركز على ما قام به القواد العرب الأوائل (عمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد وعقبه) لأن التقييم الغربى للتاريخ الإسلامى يقوم على الفصل بصورة متعسفة بين المرحلة الأولى من عصر الدولة الإسلامية والمراحل التالية التى آل فيها الحكم إلى غير العرب من الشعوب الإسلامية .

ولم يكن صلاح الدين هو القائد الوحيد الذى خاض غمار تلك الحروب التى دارت على مدى ثلاثة قرون ، وهناك غيره ممن لم يكتب عنهم ، فالغرب لا يريد للمسلمين أن يعرفوا أنهم هزموه وقضوا على جيوشه وحطموا آماله وكبرياءه لذلك يتعمد استخدام منهج التجزئه فلا يتكلمون عن التاريخ الإسلامى ككل بل يتكلمون عن التاريخ العربى الذى يقف عند القرن (١١ الميلادى) زاعمين أن الفترة التالية كانت بداية الانحسار للمد العربى ولا يقولون الإسلامى لأن الجيوش الإسلامية ظلت صامدة بل ولم تلبث أن فتحت أوربا ووصلت أبواب فيينا عاصمة

الإمبراطورية النمسوية بعد أن فتحت القسطنطينية ١٤٥٦ ميلادية ، بواسطة مراكب محمد الخامس (الفاتح) التى بدلاً من أن تسبح فى الماء ارتقت الجبال ثم انحدرت عليها حتى إذا استيقظ سكان القسطنطينية المنيعة وجدوها فى عقردارهم شامخة أمامهم تحطم حصونهم .

والواقع أن الأمة الإسلامية لم تمجد محمد الفاتح كما مجدت فرنسا كارل مارتل الذى قالوا أنه أنقذ أوربا من المسلمين لأنه انتصر على سرية مسلمة عند بلدة تولوز أو بواتيه ٧٣٢ م .

ويتحدث المستشرقون عن قسوة الترك وفظاظتهم واستعمارهم للعرب ، ولا يتحدثون عن ما قام به الأتراك من وقف زحف الجيوش الأوربية الجرارة التى أقبلت لتقضى على الإسلام وكيف لقى جيش قوامه مليون محارب بقيادة (رانبزبون) هزيمة مروعة على أيدى الأتراك ١١٤٧ م ويصفها ستيفن ريتسمان فى كتابه تاريخ الحروب الصليبية بأنها لم تكن إلا مذبحة لا معركة ، وقد ذهب ضحيتها معظم الجيش الألمانى الذى كان قد قدم ليقضى على المسلمين ، وكذلك معركة بايزيد سنة ١٣٩٦ حيث كانت ساحة المعركة أوربا لا أسيا حيث كانت هزيمة الغرب من الكوارث الفاجعة التى راح فيها ما يربو على مائة ألف قضى عليهم بايزيد وقضى على آخر أمل للغرب فى القضاء على الإسلام فقد نقل بايزيد المعركة إلى قلب أوربا فهدد العالم المسيحى ببلوغه الدانوب وشواطىء الأدرياتيكى (وهى الحملة التى يطلق الغرب عليها حملة نيكوبولس) (دكتور أحمد على المجذوب) .

✍

ثانياً : تشويه صورة الإسلام
واعتباره صراعاً بين الأغنياء والفقراء
وإشعال نار الطائفية وتجديد الخلافات القديمة

●● ومن هنا كانت عناية المستشرقين بالقرامطة والزنج والبابكية فقد حظى تاريخ القرامطة وعلاقاتها بمؤسس المذهب الإسماعيلى والخلافة الفاطمية بعناية المستشرقين المبكرة فبدأو دراستهم فى أواسط القرن التاسع عشر سنة ١٨٣٨ من زوايا مختلفة حيث كتب (دى خويه الهولندى) عن قرامطه البحرين .

وألف عن الباكيين من ادعى أن حركة بابك الخرمى هى انتفاضه الشعب الأزربيجانى ضد الخلافة العباسية بينما هى ليست كذلك بل هى حركة هدم لما بناه الإسلام وتفتيت للصرح الذى أقامه الإسلام ، يقول المؤرخ العباسى صاحب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق : لم يكن فى الإسلام حادث أضر بالإسلام والمسلمين من ظهور (بابك الخرمى) بتلك المغالة التى تفرع منها القرامطة والباطنية .

●● وفى روسيا خطط الماركسيين البلاشفه لأنفسهم طريق الثورة حتى فى مواجهة الأديان وخاصة بعد أن أعلن ماركس فى أبجدية الشيوعية أنه لا غنى عن شن أشد الحرب على تعاليم الدين وأوهامه وخزعبلاته ، ودعوة (لينين) إلى تنقيح الدين ليس بمهاجمة قصص القرآن بل بادعاء تفسير الدين وسيرة رجاله ومواعظهم وأحاديثهم بقالب اشتراكى فإذا قلنا أن محمداً ثائر يطلب الحق للفقراء فهذا تفسير اشتراكى .

وتركزت خطة الشيوعية فى إعادة تفسير الدين الإسلامى تفسيرا

دقيقاً من زاوية الاشتراكية العلمية والتفسير المادى للتاريخ ، ومن محاولات الاستشراق الشيوعى دعواه بأن حركات الإنتقاض على الدولة الإسلامية هى حركات تحرر والإشادة بها حتى يفاخر شاعر عربى متمرد بأنه قرمطى ويحاول بعض الكتاب العرب الإشادة بحركة القرامطه التى قامت ضد نظام الدولة العباسية وامتدت إلى الكعبة فتحدث عنها كدعوة تقدمية تمثل اليسار الإسلامى (وألف أحدهم أطروحه حول إحدى هذه الجماعات) وهى البابكية حيث تناول بابك واعتناقه الخرمية المتطورة عن المزدكية ووصف حركة بابك الخرمى بأنها حركة إصلاحية للتخلص من الإقطاع وأن المزدكيه استحوذت على أراضى الاستقراطية .

وحاول المؤلف الماركسى أن يظهر الحركة البابكية كأنها نتيجة صراع طبقى عنيف ، وعمل على إيقاع الخلاف والتناقض بين الإيرانيين والعرب وبين العروبه والإسلام وكشف عن مساعدة الإمبراطور الرومانى لبابك فى مهاجمة المسلمين للقضاء على الجيوش الإسلامية وتحطيم السياسة العربية الإسلامية .

وهى نظرة شعوبية قومية إقليمية فضلاً عن أنها نظرة ماركسية فى التفسير التاريخى بالصراع الطبقى .

وقد حمل الكاتب وجهة نظر (ولهاوزن) العنصرية الذى حاول أن يوجد صراعاً حاداً بين العرب والموالى إعتماداً على مصادر ثانوية مثل كتب جرجى زيدان .

●● الصراع بين العرب والموالى :

وقد حرص المستشرقان فلوتن وفلهاوزن فى كتابيهما (السيادة العربية والدولة العربية وسقوطها) إثارة مسألة الموالى من وجهة نظر مضلله .

فقد أشار كريمر وفان فلوتن فى كتابه السيادة العربية والموالى إلى أن الفتح الإسلامى تحول إلى تسلط عربى ضد الشعوب الأعجمية فإن الفتح الإسلامى ما كاد يستقر ويمد جذوره إلى المناطق الشاسعة التى بلغها حتى استحال إلى عمل سياسى انشق بسببه المجتمع الإسلامى إلى طبقتين : طبقة السادة والولاة وقسم كبير من الرعية العربية ثم طبقة الموالى .

وهو ذلك الخليط من الشعوب الأعجمية المغلوبة ، فأما العرب فإنما خلقوا ليسودوا وأما غيرهم فإنما خلقوا لكسح الطرق وخرز الخفاف كما زعموا بأن المولى كان محتقراً فى المجتمع فلا يخاطبه العربى بالكنية ولا يتبوأ أى منصب فى الدولة .

وهذه الصورة لا أصل لها فى الحقيقة ، إن إسناد أى طبيعة أو باعث إلى أمة من الأمم لا يصدق إلا بالاعتماد على بينات من الأحداث والوثائق المتعلقة بتلك الأمة عامة أو بالغالبية العظمى فلا جرم أن تصد الأحداث الشاذة والنادرة ولا تفسر إلا ضمن دائرتها الشاذة أو النادرة وحدها .

إن هناك تناقضاً بين هذا التفسير الوافد وبين الأحداث التاريخية التى نعترض أن تكون غطاءً له .

- لم يثبت أن كلمة الموالى فى هذا العهد كانت خاصة بالأعاجم دون العرب ، بل كانت تطلق على كثير من العرب كما تطلق على الأعاجم بناء على اسباب لا شأن لها بالعجم أو العروبة .
- لم نجد فى شىء من الوقائع التاريخية العائدة إلى عصر الخلافة الراشدة أو العصر الأموى ما يدل على أن العرب عموماً أو غالبيتهم العظمى أو أى فئة كبيرة منهم كانت تحتقر العنصر الأعجمى أو تسعى

لإبعاد الأعاجم عن الوظائف النبيلة التى يجب ألا يتبوأها إلا العرب بل الذى رأيناه فى هذا الصدد يقرر العكس تماماً .

فعطاء بن أبى رباح مولى تولى إفتاء مكة وكان الخليفة الأموى ينادى فى موسم الحج : لا يفتى فى الناس إلا عطاء وكان طاووس بن كيسان وهو فارسى لا يبالى أن يوبخ الخلفاء فى محل التذكر والإرشاد وكان واصل بن عطاء المعتزلى مولى لبني (فلان) وكان صدراً فى الأدب واللغة والعلم ولم ينكر فضله إنسان وهناك مئات الموالى كلهم كانوا يتمتعون بين العرب بالجاه والمكانه فى العصر الأموى ولم يثبت أن العرب نافقوا قائلين إن الموالى أنما خلقوا لفرز الخفاف ومسح الطرق .

● ومن الحقائق التى لا تقبل الريب أنهم جميعاً كانو يقفون من هذا التآزر والتقدير المتبادل تحت مظلة من الوصية النبوية القائلة : كلكم لآدم وآدم من تراب .

أما القضية الكبرى التى أثارها فان فلوتين فى كتاب السيادة العربية عن جواز الصالحين من الأعاجم أن ينكحوا نساء العرب فى الجنة فهذه جملة مردها إلى قصة أوردها المبرد فى الكامل مضعفاً ثبوتها عن رجل من أعراب البادية وقد جاء جوابها من صاحب القصة نفسها دليلاً على نقيض التحليل المزعوم فقد أجاز لنفسه أن يفسر الأعرابى الواحد من جفاة البادية بالناس كلهم كما أنه بتر الخبر عن مصدره وقطعه عن تتمته ليأخذ مظهر البحث الفقهى » .

ولقد واجه كثير من الباحثين المسلمين محاولة المستشرقين هذه فى إطار خطتهم الرامية إلى إحداث نزاع حاد بين العرب والفرس والترك والبربر بتقديم صورة تمثل هذا الشرق العربى الإسلامى فى حالة تطاحن على السلطة والسيادة ومحاولة خلق اتجاه عنصرى لتشويه دور العرب

والمسلمين الحضاري وكانت عملية فان فلوتن وفلها وزن خطوه على هذا الطريق فقد حاولا إظهار تاريخ القرن الأول الهجرى وكأنه صراع قوى بين العرب وسكان البلاد المفتوحة وقد تأثر بهذا التفسير كثير من المؤرخين العرب والمسلمين فطبقوه على مظاهر كثيرة من التاريخ العربى الإسلامى على نحو ما فعل من كتب عن الحركة البابكية أو صورها فى صورة انتفاضه قوميه إيرانية .

والواقع أن هذا التفسير جرد الحركة البابكية من سياقها التاريخي الشامل وحصرها فى جانب واحد بالغ فى إظهاره وأكد عليه متناسياً الجوانب الأخرى (فاروق عمر نورى) .

● وفى هذا الإطار قدم نبدلى جوزي : البابكية الإباحية ، والإسماعيلية الباطنية ، والقرامطة الممارسة للقتل والنهب (من الحركات الفكرية للإسلام) وسار مؤرخون عرب آخرون على طريق المذهب المادى فى التفسير التاريخى مقلدين المستشرقين الماركسيين وقد تبين أن هذه المنظمات الباطنية قامت على أفكار إسرائيلية ومعتقدات وثنية وملفقات إغريقية ، وأن رجالها حاولوا قتل صلاح الدين ، وقد استحدث هذه المزاعم ماسنيون وكاشياتى وبرنارد لويس وكراوس وقدمها الماركسيون واليهود بأقلام بندلى خورى ولوتسلى وإيفانوف .

ويقول دكتور حسن قاسم القرير فى دراسة عن الشعوبية : لقد غالى بعض المستشرقين ومن اتبع رأيهم من المؤرخين فى مسألة الموالى وقد كان لابد أن يمر بعض الوقت لكى يندمج الموالى فى التركيب الاجتماعى الجديد وقد دخل الكثيرون فى الإسلام بعد اتساع الرقعة والواقع أن العرب هم الذين نظموا الموالى وشجعوهم على التفاعل والاندماج .

أمـا الاضطهـاد الذى مـارسـه بعض الخلفـاء وبعض سكان البـلاد المفتوحة فقد وقع على المحكومين جميعاً ، ولم يدرك هؤلاء المؤرخين بأن الاضطهاد الذى مارسه بعض الخلفاء وبعض الولاة شمل العرب والموالى ، وإن كان بعض أصحاب هذا الرأى يوردون الأمثلة على سوء حالة الموالى فهى أمثلة شاذة وتدل على حالات استثنائية ، ثم أن هناك عديداً من الأمثلة تدل على التعاون والامتزاج والاشتراك فى السلطة .

●● جرت محاولات لتطويع مفاهيم القرآن والسنة لتساير المذهب الماركسى فى تفسيره المادى للتاريخ .

بل لقد تجاسر أفراد للعمل على إخضاع الإسلام وقيمة للفكر الماركسى فزعموا أن النبى ﷺ هو مؤسس اليسار ومشرع مبادئه وأن أصحابه كانوا موزعين بين اليمين واليسار .

وهذه كلها محاولات لتزييف تاريخ الإسلام وتفسيره ماركسيا وخير ما يقال فى هذا الصدد ما قاله الباحث (تريتون) حين قال إن صح فى العقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان قيام الدول وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام الباحثين إلا أن ينظروا إلى التفسير الصحيح لهذه الظاهرة الفريدة فيرى أنها تقع فى هذا الشرع الجديد ألا وهو الإسلام .

✍

ثالثاً : تشويه صورة أعلام الإسلام وأبطالـــه وتزويـــر الوقائـــع :

وقد كشف كثير من الباحثين أن هناك مخططاً مدروساً واع متآمراً على التاريخ العربى المسلم – على حد تعبير الأستاذ احمد رشاد البقلى – أخذ على عاتقه تزوير الحقائق وتزييف الوجوه وتزيين كل وضيع ، ونحن من ورائه نلهث فنبلع الطعم ونجتر الكذب ونردد فى غفلة ما يراد لنا أن نردد ومن ذلك فإن أبا ذر الغفاري خريج مدرسة القرآن والصحابى الزاهد إنما هو داعية اشتراكي ومنظر ثورة ، ومعاوية كاتب الوحى والصحابى الجليل وخائض أول معركة بحرية فى سبيل الله هى « معركة الصوارى » متآمر على الدولة الفتية ، وهارون الرشيد الحاج إلى بيت الله سنة والغازى فى سبيل الله سنه ، ومنذر القائد الرومى (من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، الجواب هو ما ترى لا ما تسمع) أسير الهوى وخدين الكأس والجنس والمتمرغ فى وحل الخطيئة قاتل البرامكة من أجل عشق جعفر الفارسى للأخت الهاشمية العربية .

● ولقد حاول المستشرقون أن يوجهوا الأنظار الى كتابين من أجل تزييف صور أعلام الإسلام هما (ألف ليلة) و (الأغانى) .

● ومنهما أخذ المستشرقون هذه الصور التى رسومها لبعض أعلام الإسلام وخاصة الرشيد الذى صوروه غارقاً فى اللهو والمجون وليس فى كتب التاريخ الصحيحة أى إتهام لهذا الرجل ، بل لقد روى الطبرى فى ترجمته أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً وأنه كان يصلى فى اليوم والليلة مائة ركعة ، وأنه لم يكن يقطع فى أمر من أمور المسلمين إلا بعد الرجوع إلى الصالحين من أهل العلم ، أما هذه الصورة المفتراة فإن أول من روج

لها فى العصر الحديث جرجى زيدان وفيليب حتى وقد عرض هذه الصورة المزرية جرجى زيدان فى رواياته التاريخية حتى أصبح اسمه مقترناً بالمجون والخمر على الرغم من أن ابن خلدون قد نبه فى مقدمته إلى ذلك بقوله (وما علمنا عليه من مغبة سوء فقد قام بمنصب الخلافة فى الدين والعدالة وبما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء ومحاورته للفضل بن عياض وابن السماك ومكاتبته سفيان الثورى وبكائه من مواعظهم وما كان عليه من المحافظة على أوقات الصلاة » .

● كذلك فقد كثف المستشرقون الحملة على السلطان محمد الفاتح فى محاولة لتشويه سيرته النقية الظاهره فلفقوا له الاتهامات ومن ذلك ما أوردة المستشرق فرانز بانتجر حين ألف كتابه عن السلطان محمد الفاتح وعصره وادعى أنه مات مسموماً وكان بانتجر يقصد من هذا الادعاء أن يجر الرأى العام العالمى عامة والتركى خاصة إلى طرح مسألة موت الفاتح بالسم ومناقشتها ولما كان من المعروف (كما يقول الأستاذ محمد حرب عبد الحميد) أن السلطان محمد الفاتح – جرياً على العادة التركية فى ذلك الزمان – قد أقام جامعاً فوق مقبرة بيرنطية فإن معنى تحليل وفاته أن يشمل ذلك حفراً يجر بالتالى إلى عملية تنقيب التربة ويمتد الأمر إلى المقبرة البيزنطية القديمة وبالتالى سيتحول جامع السلطان محمد الفاتح بحكم قانون الآثار التركية إلى منطقة أثرية ومتحف وبالتالى لابد أن يغلق تماماً أمام المصلين وتمنع منه الصلاة .

وقد كتب المؤرخ التركى شهاب الدين يكن الذى ذاع كتابه (قضية موت الفاتح) وقد كذب فيه هذا الادعاء وأكد أن المؤرخين اتفقوا على أن موت محمد الفاتح كان نتيجة لإصابته بالنقرس وأثبت فشل زعم بانتجر فى مسألة تسمم الفاتح وفضح نواياه وبذلك أوقفت مؤامرة تحويل جامعه

المشهور إلى منطقة أثرية ومتحف .

● وهناك محاولة لتصوير معركة بلاط الشهداء بأنها كانت معركة غنائم ولذلك انهزم المسلمون وأنها كانت آخر معاركهم ، وكلا الأمرين خطأ فى الحقيقة ، فموقعة بلاط الشهداء لم تكن معركة غنائم واسلاب ولم تكن آخر المعارك ، فقد شهد المؤرخون بأن هزيمة المسلمين أخرت دخول أوربا فى الحضارة الإسلامية ثمانية قرون وأن المسلمين كسبوا بعد معركة بلاط الشهداء معارك حاسمة جعلتهم يفتحون الجزء الأعظم من الأرض الكبيرة فقد بلغوا مشارف باريس عندما حاصروا (سانس) التى لا تبعد عن عاصمة فرنسا سوى ١٦ ميلاً ورابطوا بالربوع الفرنسية ثلاثة قرون باكملها بعد موقعة بلاط الشهداء .

ومعنى هذا أن المسلمين بعد معركة بلاط الشهداء استمروا فى الفتح إلى فرنسا وما وراء جبال البرانس ولم توقفهم معركة بلاط الشهداء إلا فترة قليلة عادوا بعدها إلى أداء مهمتهم التاريخية .

● ومن ذلك قصة الخدعة المشهورة عندما خلع أبو موسى الأشعرى علياً وثبت عمرو بن العاص معاوية ، هذه القصة الكاذبة التى ترددها كتب التاريخ الحديثة مع أنها غير صحيحة .

والصحيح كما أورده المؤرخون الثقات أن عبد الله بن سبأ ورجاله غيروا واقع الأمر ليلاً ، وأثاروا الفتن حتى إذا طلع الصباح اشتبك المسلمون .

ومن هنا كان ذلك الدفاع الحاد عن اليهودى عبد الله بن سبأ الذى قام به الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى حين ادعى أن ابن سبأ شخصية غير تاريخية .

يقول محمد على دوله فى كتابه (أبو موسى الأشعرى)

صورت كثير من كتب التاريخ مساله التحكيم بصورة يشوبها الكذب والمغالطات والأوهام والتى لا تثبت أمام النقد والتمحيص وزعمت تلك الكتب مزاعم منها أن حادثة التحكيم خدعه كبيرة فبعد أن اتفق الحكمان قام أبو موسى فخلع علياً ومعاوية والحق أن الأمر ليس كما صورة أولئك المؤرخون ولا يمكن الركون أبداً إلى الروايات الهزيلة التى أوردوها فى هذا المجال والتى لا تثبت للنقد .

ولم يكن أبو موسى بالصورة التى صوره بها المؤرخون فقد كان من أعيان الصحابة ذا عقل كبير وفهم دقيق وبصر نافذ أما عمرو بن العاص فما كان بالرجل الذى يستعمل دهاءه لغير صالح المسلمين وما كان بالرجل الذى يغامر بمصلحة الإسلام والمسلمين ويستحل الكذب والمكر والخداع ليصل إلى أمره على حساب دينه وأمته ، أما قصة الخديعة فهى قصة متهافتة ، كشف زيفها القاضى ابن العربى فى كتابه (العواصم من القواصم) .

وقد تحاشى ابن حجر فى كتابه (الإصابة فى تمييز الصحابة) فى ترجمة أبى موسى وعمرو وعلى ومعاوية ذكر كلمة (الخديعة) فلم يذكرها أبداً مما يوحى بأنه لا يراها شيئاً وقد رأى العذر لكلا الفريقين ، وقال (وكل من الفريقين مجتهد) .

● ولعل أخطر هذه المواقع كلها وأبعدها أثراً فى الأزمات التى ألمت بالمسلمين : هو كشف حقيقة التحالف التترى الصليبى ضد الأمة الإسلامية ويكشف هذه الخطة الشيخ محمد الغزالى فيقول : إن خطة الحملة الصليبية المغولية وضعت فى أوربا ونفذت فى آسيا ، والمؤرخون

الأوربيون يعرفون ذلك معرفة جيده ويصنفون هذه الأحداث الرهيبة تحت عنوان الحملة الصليبية المغولية (التتار) وقد لخص ذلك الأستاذ محمد على العتيق فى كتابه (الغرب والشرق) معتمداً على المراجع الفرنسية وحدها ومتجاوزاً تفسير مؤرخينا فى سرد الأحداث .

قال : دعا لويس التاسع بعض رجال أمير المغول إلى فرنسا حيث فاوضهم فى عقد اتفاق عسكرى ينص على قيام الطرفين بأعمال حربية واسعة ضد العرب والمسلمين ويكون دور المغول غزو العراق وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة الإسلامية ويكون دور الصلبيين تعويق الجيش المصرى عن مساعدة إخوانه ، أى عزل الجيش المصرى عزلاً تاماً عن سائر البلاد العربية .

ومضى لويس فى سعيه لاستمالة المغول ولشحذ قواهم المدمرة لضرب الإسلام ففى ٢٧ / ١ / ١٢٤٩ م أرسل أمير المغول هدايا فاخرة حملها إليه وفد يرأسه الراهب الدومنيكى (أندريه دى لونجيمو) وكان بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس .

والذى أطمع لويس التاسع فى نجاح محاولته لتكوين جبهة مشتركة مع المغول هو ما كان للنصارى النسطوريين من نفوذ وهيمنه فى امبراطورية جنكيز خان ، إذ كانت سلطات الدولة فى قبضتهم وأرفع المناصب فى أيديهم . **يقول الأسقف دى سيسل** : واشتهر هولاكو بميله للمسيحيين النساطرة ، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم ، كما كان قائده الأمير (كيتبوكا) مسيحياً نسطورياً وكذلك كانت الأميرة دوكس خاتون زوجة هولاكو مسيحية وقد أدت هذه الزوجة دوراً تفخر به الكنيسة

فى تجنيب أوربا المسيحية أهوال الغزو التتارى وتحويله إلى بغداد والأمة الإسلامية ، كما أنه صدرت الأوامر منذ سقوط بغداد بتقتيل المسلمين وحدهم وعدم المساس بالمسيحيين أو التعرض لأموالهم .

ويصف الأسقف دى سيسل حملة التتار على بغداد فيقول :

كانت صليبية بالمعنى الكامل هلل لها المسيحيون وارتقبوا الخلاص على يد هولاكو وقائده المسيحى (كيتبوكا(-)) الذى تعلق أصل الصليبيين بجيشه حتى يتحقق القضاء على الإسلام والعرب ، وهو الهدف الذى فشلت الجيوش الصليبية فى تحقيقه .

وقال التاريخ يصف سقوط بغداد : يأس الخليفة (المعتصم بالله) من عمل أى شىء فسار بنفسه وأولاده وحواشيه إلى معسكر هولاكو وارتقب مصيره وكذلك فعل الأعيان والوجهاء حتى إذا تكامل عقدهم أعمل التتار فيهم السيف وفتكوا بهم جميعاً ، ثم بدأ إفناء الجماهير وعصف الردى بالشعب والشباب والرجال والنساء وسالت الدماء فى الطرقات شاقة مجراها إلى الفرات الذى احمرت أمواجه من كثرة ما أزهق من أرواح ، قدر بعض المؤرخين عددها بمليون وستمائه ألف نفس وظلت ريح الدماء تلف البلد البائس ستة أسابيع نهبت فيها القصور العامرة وخربت المساجد والمدارس والمكتبات وكما احمرت مياه النهر عدة أميال لغلبة الدم عليها اسودت بعد ذلك لفداحه ما أحرق من مخطوطات ومؤلفات هى حصاد العقل المسلم قروناً عديده .

وهكذا انهار كل ما كان شامخاً وأتت الفوضى على حضارة أثارت المشارق والمغارب هوى بها الهوى والمجون ودمرت أيام اللذة ما شادته روح التضحية والفداء .

(-) حفظ المؤرخون الإسلاميون اسم هذا القائد التترى حسب نطقهم « كتبغا » .

والحق أن مصائر المدن الإسلامية الأخرى لم تكن أفضل من دار السلام (بغداد) إن ٩٠ فى المائة من مبانيها وسكانها تلاشى وأمسى أثراً بعد عين مما جعل السيوطى يعبر عن هذه المآسى يقوله : حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوى الأخبار ، وتاريخ ينسى التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة لها وفادحة تطبق الأرض وتملأها بين الطول والعرض . وكان المفروض أن تلقى القاهرة ودمشق النهاية نفسها التى لقيتها بغداد ودمشق حسب الخطة الصليبية المرسومة بيد أن هزيمة التتار أمام الجيش المصرى فى معركة (عين جالوت) ومقتل القائد المسيحى (كيتبوكا) ووقوع النزاع الدموى بين هولاكو المائل إلى المسيحيين وأخ آخر مائل إلى الإسلام ذلك كله أوقف المصائب النازلة بالمسلمين الحاجين .

لقد دفع المسلمون ثمناً فادحاً لمعاصيهم السياسية والاجتماعية ولخلودهم إلى الأرض وحبهم للدنيا وكان القرنان الهجريان السادس والسابع مسرحاً لزلازل وبراكين هزت كيان الأمة وأمكنت الصليبيين والوثنيين من إهلاك الحرث والنسل ومن تخطاه الموت هام على وجهه لا يجد مأوى .

وكان الشعور العام أن الإسلام يجب أن يزول وأن أمته يجب أن تختفى ، ومع أن التتار فى المشرق كانوا الأيدى المنفذة ، إلا أن المسلمين أحسوا من قبل ومن بعد أن أوربا هى التى ترسم وتشير وتعمل وتساعد وبقى هذا البلاء موصولاً أكثر من قرنين ، ولم يرتد أحد عن دينه رغم قسوة الهجوم فيما ولى القرن السابع وجاء القرن الثامن كان العنصر العربى يتراجع عن أماكن القيادة وكان الأتراك يأخذون الطريق إلى الأمام على أن العناصر التى تتكون منها الأمة الإسلامية كانت مثخنة بالجراح

فقد نجت من جريمة قتل عمد وشاءت الأقدار أن تبقى كى تثأر للآلاف المؤلفة التى بادت .

وقد بلغ خلفاء بنى العباسى سبعاً وثلاثين خليفة لم يستحق الرئاسة منهم إلا عدد أصابع اليد كما قال دعبل : خليفة مات لم يحزن له أحد ، وآخر قام لم يفرح به أحد ، إلا أن سقوط الخلافة نفسها كان ذريعة إلى ضياع الإسلام كله وتطلع المسلمون إلى خلافة جديدة تواجه البابوات والكرادلة والمؤامرات الخفية والجلية ضد الإسلام - أمر مفهوم - ومن ثم رحب الجمهور بدولة العثمانيين وتلقفهم لراية الخلافة وتبعوها وهى منتصرة من دولة الروم الشرقية وتستعد للسيطرة على أوربا كلها .

وكانت المعاملة بالمثل هى القانون الذى سار بين المسلمين وخصومهم وما دام الصليبيون من وراء سقوط بغداد فليتوجه المسلمون إلى القسطنطينية نفسها والبادى أظلم .

وقد استولى الأتراك على المدينة بعد حصار واختراق لم يعرف لهما نظير فى تاريخ الحروب .

فسقوط الخلافة فى بغداد تم وسط مذابح هائلة ، أما سقوط القسطنطنية فلم يتجاوز القتلى فيه حدود ميدان القتال وحده والحملات الصليبية كان هدفها محو دين وإبادة أتباعه جملة وتفصيلاً .

إن مشكلة المشاكل عند اليهود والنصارى قديماً وحديثاً هى أنهم يروننا مبطلين غير جديرين بالحياة وتطبق الأحقاد على قلوبهم وعيونهم فيؤثرون عبدة الأصنام ومنكرى الألوهيه بودهم وتحيتهم »[1] . هـ

وقد صور ابن تيمية هذا الموقف قبل أكثر من سبعة قرون حين

قال : لقد كان هناك تحالف (تترى - صليبى) ضد عالم الإسلام وكان هناك عجز عن مواجهة هذا التحدى المدمر فى أغلب بلاد الإسلام (اليمن - الحجاز - إفريقية - المغرب الأقصى) .

ولم يكن هناك سوى فرسان المماليك ممن علق الإسلام والمسلمون عليهم الآمال فى مواجهة التحدى التترى الصليبى فكذلك وجبت نصرة المماليك ، إن عسكر المماليك هم كتيبة الإسلام وعزهم عز الإسلام فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا كلمة عالية ولا طائفة تظاهره عالية يخافها أهل الأرض تقاتل عنه ، فهم المماليك من أحق الناس دخولاً فى الطائفة المنصورة التى ذكرها النبى ﷺ فى قوله فى الأحاديث المروية عنه (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) .

ولم يتوقف تآمر البابوية ففى القرن السادس عشر الميلادى خططت البابوية للالتفاف حول العالم الإسلامى من المشرق ومحاصرته من أطرافه الشرقية ونجحت فى هذا وساهمت البرتغال وأسبانيا فى هذه الخطة ، يقول دكتور مصطفى رمضان : إن الزحف الأوربى جاء ليحاول زلزلة العالم الإسلامى فى الميادين السياسية والاقتصادية والعقائدية وبدأت هذه الدول تحكم سيطرتها على مقدرات بعض الدول الإسلامية .

وأنه على مدى سنوات متعددة تغلغلت الامتيازات الأوربية فى البلاد الإسلامية لتشجيع الغزو الفكرى الغربى الذى كان كل همه لا يزال تمزيق وحدة الفكر الإسلامى لتظهر الاحتكارات الغربية فى دول إسلامية متعددة ومن هنا كانت أهمية الدعوات التى تدعو إلى وحدة المسلمين ، إن الاستعمار واجه الدول الإسلامية وعاملها دائماً باستراتيجية موحدة

استطاعت أن تكبلنا بأوضاع جديدة ترمى إلى تمزيق العملاق الإسلامى الكبير الرابض وسط العالم القديم من حدود الصين إلى المحيط الأطلسى » .

وهكذا فإن المؤامرة لم تتوقف .

رابعاً : كتابات فى السيرة المعاصرة

ثم كانت ظاهرة كتابة السيرة النبوية على الطريقة الغربية الحديثة وما كتبه هيكل وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم .

وقد ظهرت هذه الكتابات فى مرحلة سيطرة الفكر العلمانى فأنكر هيكل الإسراء بالروح والجسد ووصف العقاد النبى بالعبقرية أما طه حسين فقد ذهب إلى إدخال الأساطير إلى السيرة النبوية فى محاولة لخلق (ميثولوجيا) إسلامية على النحو الذى عرفته كتابات المسيحية فى الغرب .

وقد علق الدكتور محمد حسين هيكل على كتاب على هامش السيرة للدكتور طه حسين فقال :

إنه يدعو إلى ميثولوجيا إسلامية لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه وقد كانت هى غاية الاساطير التى وضعت فى الأديان الأخرى ومن أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور بتطهير العقائد من تلك الأوهام .

وقد أخذت على الدكتور محمد حسين هيكل بعض الأخطاء فى كتابه عن الصديق أبى بكر حيث أورد عبارة (ورقابة صاحب القرآن أعظم من كل رقابة) وقد أحدثت هذه العبارة بلبلة شديدة فى امتحانات نهاية العام حيث كان الكتاب مقرراً على الطلبة لدراسته .

وكان السؤال : من المقصود بعبارة صاحب القرآن ؟ (والمقصود بهذه العبارة كما يقول الدكتور هيكل : هو من أوحاه إلى رسوله (أى الله

سبحانه وتعالى) والصاحب كما يفهم من مدلول العبارة هو مالك الشىء فصاحب القرآن معناها مالك القرآن والقرآن كما يعلم كلام الله غير مخلوق وكلام الله صفة أزليه وجودية قائمة بذاته تعالى ليست بحرف ولا صوت .

وعبارة هيكل تجعل العلاقة بين الله وكلامه القرآن ، علاقة المالك بملكه وترتب على ذلك ثنائية تؤدى إلى المغايرة لأن المالك غير المملوك ، هكذا يقول محمد أبو الحسن موجه اللغة العربية وبذلك تكون صفة الله - تبارك وتعالى - مغايرة لذات الله ومن يقل بالمغايرة بين الذات والصفة ليس من ديننا فى شىء ، إن الدكتور هيكل كان رجلاً علمانياً لم تفارقه علمانيته فى مؤلفاته الدينية وقد ظهرت واضحة فى عدة مواطن من كتاب (أبو بكر الصديق) .

ولقد كان من خطأه أن كتب فى مقدمة حياة محمد ، أنه يكتب السيرة على الطريقة العلمية الحديثة وقد رد عليه الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى مقدمة الكتاب بأن هذه الطريقة فى الحقيقة طريقة المسلمين التى قدموها إلى الغرب ونسيها المسلمون حتى جاء الدكتور هيكل ينسبها إليهم وهى ملك للمسلمين .

● ومن خلال هذه الكتابات ما يسمى فكرة السبعة آلاف عام وفكرة التراب الوطنى وكلاهما من الأوهام التى وضعت لتثبت قواعد الإقليميات والانعزال عن الرابطة الإسلامية وهى التى حجبت مفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة .

إن قصة السبعة آلاف عام هذه من الأوهام والخرافات التى ابتكرها دعاة الإقليمية والاعتزاز بالفرعونية أما أمام البحث العلمى الصحيح فإنها لا تعنى شيئاً حقيقياً فأين وحدة التاريخ أو وحدة الثقافة المتصلة سبعة آلاف عام ؟ لا اللغة واحدة ولا الدين واحد ولا القيم ظل مفهومها ثابتاً ،

وإنما كل شيء قد تغير بالاسلام وبقى شيء واحد هو الحنيفية السمحاء دين إبراهيم وهذه لا تمثل مصر وحدها ولكنها تمثل هذه المنطقة كلها التى تحرك فيها إبراهيم عليه السلام وأبنائه من بعده ورفع عليها علم التوحيد الخالص .

● فلماذا هذه العودة الموبوءة إلى ترديد ألفاظ أمثال حورس وأبيس وآتون مما كان يكتب قبل خمسين عاماً .

إن فكرة السبعة آلاف عام هى أسطورة فارغة بعد أن وضع الإسلام قاعدة الانقطاع الحضارى وتبين أن كل ما كان قبل الإسلام هو تمهيد للإسلام ، كذلك فإن فكرة (التراب الوطنى) هى من دعوات الإقليمية والعنصرية وهى قضية دخيلة ووافدة وجزئية ، وما كانت أبداً موضع نظر أو تقدير المصلحين أو المفكرين والباحثين ، إلا فى هذه المراحل التي يحدث فيها التحدى الاستعمارى ولكنها فى الحقيقة ليست زاداً معطياً يمكن أن يشكل فلسفة بناء اجتماعى ضخم على النحو الذى يحاولون أن يصوروها به .

● ولقد عمد الاستعمار والنفوذ الأجنبى من أجل نقل الحملة على الدولة العثمانية والمماليك إلى البلاد الإسلامية كرهاً لهما وحقداً على هاتين القوتين اللتين حمتا الإسلام من الغزو وخلصتا بلاد المسلمين من الحملات الصليبية وغيرها . هذه الخطة الحاقده هى محاولة إحياء بعض كتب التاريخ المصرى الإقليمية التى كتبها ابن اياس وابن تغرى بردى والمقريزى وبعض المؤرخين فى مرحلة الضعف ومن ثم فقد دفعت بعض الباحثين إلى إحياء كتب هؤلاء المؤرخين وإنفاق الجهد الكبير فى هذا الصدد وقد حاول الاستشراق أن يذيع هذه الكتابات حتى تصبح على أسنة أقلام المغربين فى حملة شديدة تهدم بطولة المماليك والعثمانيين ونجد

الأستاذ محد عبد الله عنان من أشد المؤرخين تأثراً بهم ، على النحو الذى عُرف عن الكارهين للوجه العربى والوجه الإسلامى لمصر .

إن مهاجمة العثمانيين والمماليك هى خطة مسمومة من خطط النفوذ الغربى ومعلم من معالم الاستشراق ترمى إلى تسميم الآبار حتى تظل الفجوة قائمة بين عناصر الأمة الإسلامية التى ألح عليها النفوذ الأجنبى لهدم الوحدة الإسلامية التى أقامتها الدولة العثمانية أكثر من أربعمائة عام ولإسقاط الخلافة الإسلامية ولإلغاء مفهوم الجهاد الذى عرفه المسلمون وما قاموا به حين وصلوا بقواتهم الظافرة إلى أسوار فيينا فى قلب أوربا مرتين بعد أن وصلوا من ناحية الأندلس قبل ذلك إلى نهر اللوار .

لقد عرف النفوذ الغربى أن مدخله الأساسى لهدم الوحدة الإسلاميه هو إسقاط الدولة العثمانية وهزيمتها وهو المخطط الذى استمر الغرب بحقده وتعصبة فى تغذيته أكثر من مائتى عام بهدف تدمير الرابطة التى أقامتها الدولة العثمانية .

إن دعاة القوميات الذين أنشأتهم القوى الأجنبية وغذتهم بالأحقاد نحو الوحدة الإسلامية هم الذين لا يتوقفون عن الهجوم على الدولة الإسلامية والمماليك وهو سلاح ما يزال مشهراً بأيدي أعداء الإسلام وخصوم الخلافة والنظام الإسلامي يخفون وراءه كلمات براقة عن الإسلام لا تخدع أحداً ، وفيهم من هم دعاة لأحزاب قامت على عداوة الإسلام أساساً واحتوت عناصر من الفرقة الحاقدة التي جددت نظريات قديمة بائدة ، وهى لا تريد أن يقوم كيان إسلامي جامع لأنه يقضي على نفوذها الذي امتلكته بالاغتصاب والسرقة والخداع وبالولاء للقوى الأجنبية التي تريدها قائمة حتى يمكن لها تمزيق الجبهة الإسلامية .

خامساً : التفسير الإسلامي للتاريخ

يتمثل التفسير الإسلامي للتاريخ في عدة عناصر أساسية :

أولاً : قدم القرآن الكريم للمسلمين مفهوم فلسفة التاريخ وأهميته وعبرته حين تحدث عن الأمم الغابرة ، وحين وضع سنن قيام الأمم والحضارات وسقوطها .

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

﴿ أو لم يهد لهم كما أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ .

﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ .

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾ .

(سور : يوسف وآل عمران والسجدة وق والقصص والروم) وهي في مجموعها تدعو المسلمين إلى :

- السير في الأرض والنظر في مصير الأمم السابقة وأخذ العبرة .
- الاعتبار بأن هلاك هذه الأمم كان نتيجة خروجها على منهج الله وإسرافها في الترف والفساد .
- إهلاك هذه الأمم التي كانت أشد قوة من العرب وقد أثاروا

الأرض وعمروها وجاءتهم البينات فأعرضوا عنها .

● على الإنسان أن يلتمس العبرة ويسدد حاضره ويحرره من العوامل التي كانت مصدراً لسقوط الأمم وأهمها الظلم والفساد والانحراف .

● دعوة الإسلام الناس إلى التماس وسائل التغيير وأنه لا يمكن تغيير الأمة إلا بتغيير الأنفس .

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾

● التحرر من الغفلة والاستعداد مع اليقظة والمرابطة والحفاظ على الأسلحة بعد إعدادها (إسماعيل كيلاني) .

✍

ثانياً : التفسير الإسلامي للتاريخ : نظرة كلية تشمل الناحيتين المادية والمعنوية معاً بينما تلتزم كل من النظرة الغربية والماركسية بالجانب المادي فقط الذي يتمثل في (التفسير المادي للتاريخ) ومفهوم الإسلام يتلخص في أن الأمم التي تخرج على منهج الله لابد أن تدمر ، وأن الدين محرر للأمم روحياً واجتماعياً وأنه يستهدف إقامة مجتمع لا طبقي تسوده المودة والعدالة التي تتأصل في النفوس على قاعدة من القيم الروحية والخلقية .

قال ولفرد كانتول سميث : إن النظام الإسلامي هو أجدى وأرسخ تجربة تمت لتحقيق العدالة بين الناس ، وإن هناك فرقاً واضحاً بين الإسلام والماركسية ألا وهو أن الإسلام يرى لكل حدث دنيوي مغزيين ويقيسه بمعيارين : أحدهما وقتي أو دنيوي والآخر أبدي أو أخروي .

وقد تأكد أن دراسة ماركس وإنجلز للأديان وتطورها كانت سطحية وغير شاملة ومن هنا نظر إلى الدين كمعوق للتغير الاجتماعي وغاب عنهما أن الأنبياء لم يكونوا بسحرة ولا بتجار شعوذة ومن هنا كان على المسلمين أن يقولوا :

لا لصراع الطبقات ، ولا للحتمية التاريخية .

ثالثاً : التفسير الماركسي للتاريخ الإسلامي يقع في أخطاء خطيرة .

فمن أي السبل يمكن أن يدخل العامل المادي في تفسير ما احتمل أولئك الأشراف من قريش والسادات من مصر ، في سبيل عقيدتهم ؟ فالرسول لم يكن ذا مال يرجونه ولا كان على الأفق المكي وقتئذ بادرة تمنيهم بالغنى أو الغنيمة ، عوضا عما أنفقوا من أموالهم وما كسبوه من تجارتهم وتركوا من ديارهم والإسلام كلفهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ومجاهدة ما كانوا عليه من سرف وترف .

● ومن أوائل عصر المبعث – كما تقول الدكتورة بنت الشاطئ – غض المشركون الوثنيون من قدر رسول الله أن لم يكن ذا مال وبنين وليس بين أيدينا من أصول المصادر للسيرة وتاريخ عصر المبعث إن أحداً من المسلمين والذين معهم الشعب من الهاشميين شارك في السعي إلى نقض الصحيفة بل صبروا واحتسبوا عند الله ما لقوا في سبيله من الأذى طوال العهد المكي الذي امتد ثلاثة عشر سنة ولم يؤذن فيها للمسلمين بقتال ابتلاءً لهم وتمحيصاً واستصفاء لجند الله المخلصين .

ولقد استجاب المستضعفون للإسلام وهم يتوقعون ما يلقونه في سبيل الله من تعذيب وشهادة خلافاً للتفسير المادي الذي يقول بإسلامهم

لمجرد الرغبة في الخلاص من غل الرق .

رابعاً : يقرر الإسلام أن الإنسان هو الكائن المستخلف في هذه الأرض والذي ينفذ قدر الله - تبارك وتعالى - من خلال نشاطه وحركته فالإنسان ومن ورائه قدر الله - تبارك وتعالى - هو المؤثر الأول في خط سير التاريخ وفي الأطوار التي تتقلب فيها الحياة والذي يجعل كل تغير وكل تطور إنما يبدأ من إرادة الإنسان ثم يتخذ طريقة للتحقيق في عالم الواقع .

ولما كان التاريخ تعبيراً عن المشيئة الإلهية فإن أي حركة تاريخية هى نتاج لقاء فاعل بين الله - تبارك وتعالى - والإنسان والطبيعة بما في ذلك الزمن وقد جعل الله - تبارك وتعالى - للإنسان مشق مختار فيه ليبتلي في عمله ويكون عليه الحساب والجزاء فعلى الإنسان أن يوائم بين حركة حياته وبين حركة الكون فيسلم نفسه ووجهة لله - تبارك وتعالى - وفق الطريق المستقيم بعيداً عن الغلو والتقصيير في ضوء الالتزام الأخلاقي والمسئولية الفردية والجزاء الأخروي .

خامساً : تسير حركة التاريخ طبقاً للقوانين الإلهية فخلق الإنسان واستخلافه في الأرض يهدف لغاية محددة هى عبادة الله - تبارك وتعالى - والحركة المستمرة تسعى للوصول إلى غاية محددة أيضاً (ليهلك من هلك عن بينه ويحي من حي عن بينه) .

وقد حدد القرآن الكريم دور الفرد وأنه محاسب مسئول عن عمله والجماعة التي يحكمها نظام معين مسئولة أيضاً .

(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وتتمثل سنن الله - تبارك وتعالى - فيما يتصل بالحركة الدافعة للتاريخ البشري إلى

مساره منذ خلق آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وقد صور القرآن الكريم هذه الحركة فالله – تبارك وتعالى – خلق المادة والروح ويتمثل تعانق هذين العنصرين في خلق آدم ويتحرك الإنسان في داخل الزمن المخلوق من الله مع تدخل الله – تبارك وتعالى – في دفع هذه الحركة باستمرار (وهو معكم أينما كنتم) وهى معية لا تعني حلولاً ولا اتحاداً .

وقد ورد مصطلح سنة الله في القرآن في غير موضع .

(ولن تجد لسنة الله تبديلاً) (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه القوانين الثابتة في حديثه عن الأمم السابقة ومانزل بهم من جراء عصيانهم رسلهم وهو الهلاك الدنيوي والعذاب الأخروى وإن اختلفت وسائل الهلاك (أغرقوا ، أخذتهم الصيحة ، أهلكوا بريح صرصر عاتية) هذه سنة الله في العقاب لمن أعرضوا وهناك سنة الله في العطاء (فقلنا استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً) ، (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) .

سادساً : قرر القرآن الكريم قانون إهلاك الأمم وحدد ذلك في وضوح كامل ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ سورة موسى .

● والهلك يراد به أن يتم عن بينه كي يعتبر الذين بعدهم بما جرى للسابقين كي تتجدد الحياة . (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) .

● إن بلوغ أقصى القوة والتمكين في الأرض لا يحول دون الهلاك ﴿ ألم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد قوة وأكثر جمعاً ﴾ .

﴿ أو لم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرى مكناهم في الأرض ﴾ ، ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً ﴾ وهكذا تسقط الحضارة يوم يخالف أهلها السنن الكونية وكذلك الأمم والجماعات البشرية إذا انحرفت عن السنن التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان .

والقرآن الكريم هو الذي هدى المؤرخين إلى هذه الحقيقة وفسرتها السنة الشريفة ويظل التفسير الإسلامي هو المنهج الصحيح مهما قدم المؤرخون الغربيون من مذاهب مثالية أو مادية ، ذلك أن هذه المناهج تغفل عن البعد الغيبي للأحداث حيث تعتمد على قوة الطبيعة المادية دون أن تعرف الحقيقة التي يقررها التفسير الإسلامي للتاريخ وهو أن هناك ثلاث عناصر أساسية :

- علم الله ومشيئته .
- إرادة الإنسان وحركتة .
- المادة الخام .

ودور الإنسان في هذه المواقف وارد ولكن الحرية الإنسانية هي جزء من إرادة الله - تبارك وتعالى - في خلق الأفعال والحوادث ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فالإنسان مستخلف في الأرض من أجل أداء دوره في بناء المجتمع الرباني وحماية البيضة بالمرابطة في الثغور والقدة على الردع .

وقد سخر الله - تبارك وتعالى - القوى المادية للإنسان ليكون في خدمة المقصد الأسمى وأن تكون حركته (ربانية) في سبيل إقامة منهج

الله لا من أجل الاستعلاء الفردي .

وقد جاءت قدرة الإنسان على التغيير في مواجهة مفهوم الجبرية أو الحتمية الذي تمثله الحضارة الحديثة .

ومفهوم الدفع في الإسلام يختلف عن مفهوم الصراع ، ففي الإسلام تتلاقى الأجيال وتتلاقى العناصر ولا يقر الإسلام مفهوم الصراع الطبقي ولا صراع الأجيال .

ويأتي سقوط الدول والحضارة نتيجة الغفلة أو الوهن أو الفتور عن الاستمساك بمنهج الله والاستسلام للترف والزمن الوهمي فالإنسان المسلم مطالب برفض اليأس والهزيمة والاستمساك الدائم بمنهج الله ﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك ﴾ .

والهزيمة تأتي من التناقض بين القول والفعل ، ومن الترف ، ومن فقدان القيم الأخلاقية ، ومن العزوف عن الجهاد والمرابطة في الثغور .

سابعاً (الحتمية) : أما النظرة الغربية فهي في مجموعها وفي تنوعها فاسدة وناقصة وقاصرة فهي تقوم على أن التاريخ مسير بالعوامل المادية والاقتصادية وهو سلسلة من الأفعال وردود الأفعال المادية حتى أن العظماء الذين ظهروا على مر التاريخ لم يكونوا سوى نتاج لعوامل مادية رفعتهم إلى أن يكونوا هم أيضاً عبارة عن ردود أفعال لتلك العوامل الاقتصادية (دكتور محمود محمد سلامة) .

وفكرة الحتمية التاريخية وفكرة المادية التاريخية قد أثبتت الأحداث عجزهما عن التفسير الصحيح وتأكد أن هناك تصرفاً دائماً لله - تبارك وتعالى - خارج نطاق القوانين الثابتة .

وقد قام التفسير الإسلامي للتاريخ على أساس الرحمة لا الصراع وإن صراط الله – تبارك وتعالى – المستقيم هو الوسط الذي يحقق الوحدة وحوله السبل الشتى التي يؤدي سلوكها إلى الصراع والتضاد (وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر) وقصد السبيل بين الغلو والتقصير والجائر هو غير المغالي أو المقصر .

ويوجد الصراع حين الانحراف عن سنة الله – تبارك وتعالى – وعن الإيمان بجعل الحياة طريقاً إلى الوحدة والتعاون .

(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق) والذين يعتمدون على قدراتهم يواجهون الصراع ويتحقق الاستقرار داخل الإنسان والمجتمعات عندما يكون السلوك الإنساني الاجتماعي محققاً للتوازن والاستقرار .

يقول أحد الباحثين : لو صح أن الإنسان مسوق بالقوانين الحتمية وخاضع لها تماماً ، مثل النبات والحيوان لكان التاريخ علماً مطرد الأحكام يمكن التنبؤ بما يقع فيه من أحداث ، ولو صح أن الإنسان حر غير مقيد بصنع تاريخه بنفسه لكان إلها يفعل ما يشاء ولما وجدنا أي عائق يقف أمام رغباته ، والإسلام لا يقر الحتمية ولا يقر الجبرية ولا يقر الصراع ولا يقر الجدلية فهذه كلها نظريات فلسفية ضالة نشأت في ظل مفهوم ناقص هو المفهوم المادي القائم على إنكار الإنسان للتوجيه الرباني وإنكاره لعالم الغيب وإنكاره لإرادة الله – تبارك وتعالى – العليا التي أعطت الإنسان هذا القدر من الإرادة الفردية .

ومن هنا فإن التفسير الإسلامي للتاريخ في ضوء القرآن الكريم يقوم على ثلاثة عوامل أساسية .

■ سنة الله - تبارك وتعالى - التي لا تتبدل ولا تتحول في الكون وهى التي شرعها للإنسان لتهتدي إلى الصراط المستقيم وتنسجم مع نواميس الكون .

■ إرادة الله - تبارك وتعالى - المطلقة التي وضعت النواميس والقوانين وهى القادرة على خرقها مثلما شاءت .

■ رسالات الأنبياء التي بعثها الله - تبارك وتعالى - لنقل المجتمعات من التخلف إلى الحضارة .

■ مهمة الخلافة التي استخلف بها الإنسان وما يتصل به من مسئولية والتزام وجهاد وتدافع لإظهار الحق على الباطل .

ثامناً : فساد الجدلية

إن أخطر الأباطيل التي فرضت على الفكر الإسلامي هي فكرة الجدلية Dealactic ، يقول باحث إسلامي في هذا الصدد : لقد ظن البعض حين معالجة التاريخ أنه عبارة عن صراع جدلي لا راد لحتميته ، وقد تبنت فكرة الصراع الجدلي على أنه مسلمة تاريخية وقانون مجمع عليه ، وهو ليس كذلك في الحقيقة إنما هو أمر يؤدي إلى اختلاط الفهم ويضطر صاحبه إلى إدخال معاني القرآن في الخلق والكون والحياة في إطارها الضيق فيتعسف استخدام ألفاظ الجهاد والفتنة والابتلاء ودفع الله الناس والاختلاف لأن هناك فرقاً هائلا بين الاختلاف والتناقض وبين الجهاد فالصراع ليس تقدماً باستمرار وإنما يؤدي إلى نكسة .

وبعد فمنذ ظهر الإسلام على هذه الأرض فقد استطاع ببساطته وملائمته للفطرة ووضوح حقائقه أن يغير مجرى التاريخ وأن يعيد رسم خريطة العالم وأن يقيم حضارة لها طابع خاص مختلف عن الحضارات التي سبقته ، فقد قام الإسلام في هذه المنطقة التي كانت مرتعاً خصباً للفكر الوثني خلال ألف عام (اليونان والرومان والفراعنة والفرس) واستطاع اكتساح الأديان واللغات ، ويقرر الإسلام وجه التاريخ بوحدة الأديان في وجهتها إلى الدعوة إلى توحيد الله - تبارك وتعالى - ، ووحدة الحياة من حيث كونها مشروعاً إلهياً ونظاماً سماوياً ينبغي أن يكون مؤدياً إلى غاية واحدة .

فهناك خيط عام ينتظم الأديان السماوية كما ينتظم السمط الحباب المتناثرة فقد كان الأنبياء والرسل قمماً بشرية طويت على أيديهم صفحات تاريخية ونشرت صفحات أخرى .

وفي الإسلام تقوم العلاقة بين الكون ومعه الإنسان وبين الله - تبارك وتعالى - على أساس علاقة مخلوق بخالق ذي سيطرة كاملة شاملة وفي كل ملكه ، ففي كل طاقة وفي كل عضو من الكيان الإنساني شاهد ناطق بهذه العبودية ، وهى عبودية لا تفقد الإنسان مقوماته الذاتية ولا إرادته الحرة التي هى منحة من الله - تبارك وتعالى - فالإنسان يصنع تاريخه بحكم الدور الإيماني الذي يقوم به حيث يستعمل في صنع ذلك طاقاته وملكاته التي هى من صنع الله - تبارك وتعالى - .

وهكذا تتميز نظرة الإسلام إلى التاريخ بواقعيتها وشمولها واختلافها عن سائر النظريات الأخرى ويختلف عن نظرية وحدة الوجود (بمعنى أن الله والعالم والإنسان شئ واحد) أو نظرية الحلول (حلول

الله في الكون والإنسان) أو نظرية وحدة المصدر التي تقضي بوجود حقيقة واحدة وتلغي الوجود الشخصي الفردي للظواهر .

وهى بهذا تختلف عن نظرية الفلسفة المادية والتفسير المادي والطبيعي للتاريخ : هذا التفسير الذي يقوم على أساس أن وقائع التاريخ أفعال وردود أفعال متبادلة بين أفراد الإنسان أو الأمم في عالم أرضي مغلق هو كل ما يوجد ولا يوجد وراءه أي قوة أخرى مع استبعاد أي مبدأ روحي أو إلهي أو عالم غيب .

وبذلك يتعارض معارضة تامة مع مفهوم التفسير المادي أو التصور الماركسي أو الشيوعي الذي يقول بأن الناس وحدهم هم الصناع الحقيقون للتاريخ وخاصة الطبقة الكادحة ، وأن الضرورة والحتمية التاريخية لا يمكن أن تتخلف .

والواقع أن نظرية الضرورة أو الحتمية التاريخية ليست سوى وضع إنساني أملاه الإلف والعادة .

وقد أكدت وقائع التاريخ فساد هذه النظرية وخطأها وفساد مقولة أن التاريخ يطبق لمبدأي الضرورة والتناقض اللذين لا مكان فيهما لأي عنصر غير إنساني .

والواقع أن قدرة الله - تبارك وتعالى - هى فوق إرادة الأفراد والأمم وولاية الله للمخلصين من عباده حقيقة قائمة .

وإن حركة التاريخ هى تحقيق لإرادة الله - تبارك وتعالى - في قيام المجتمع الرباني الصحيح .

الفصل الثانى عشر

اللغة العربية

أنور الجندى

بيت الحكمة - ص . ب (٥ - ١٣٤١١) شبرا الخيمة / مصر - ت. وفاكس : ٢٢٠٧١٢٤

كان من أخطر ما اتصل باللغة العربية أن اختارها الحق - تبارك وتعالى - وعاء لكتابة الخاتم القرآن الكريم الذى نزل على خاتم رسله محمد ﷺ ، ولقد كان هذا التحدى خطيرا خطيرا على اللغة العربية وعلى المسلمين أيضاً فلولا أن نزل بها القرآن لكانت لغة من اللغات التى تخضع لقوانين تغاير العصور والبيئات وتداول العاميات ولو لم ينزل بها القرآن الكريم ما كانت لتواجه هذه المؤامرات المتوالية التى ترمى إلى الفصل بينها وبين القرآن الكريم .

فاللغة العربية الفصحى - لأنها لغة القرآن - أصبحت هدفاً من أخطر أهداف الحرب المعلنة على الإسلام فى طموح إلى فصل البيان العربى المعاصر عن بيان القرآن على نحو يجعل من نتائجه قراءة القرآن بعد مائة عام بقاموس ، حيث يظنون أن العاميات واللهجات سوف تسيطر فتدخل اللغة العربية إلى المتحف كما دخلت اللغة اللاتينية ومن هنا تجرى عمليات الحرب المعلنة والخفية على النحو وعلى البلاغة وعلى عمود الشعر ، والدعوة إلى ما يسمى باللغة الوسطى التى نادى بها توفيق الحكيم من أجل نصرة العامية وإضعاف الفصحى .

ولقد وضع المستشرقون وأتباعهم من العلمانيين والمغربين عدداً من الأبحاث والمحاولات فى هذا الصدد كان آخرها كتاب الدكتور لويس عوض (مدخل إلى اللغة العربية) الذى يتسلل رأساً ليهاجم عقيدة التوحيد ويخادع فى رد بعض الألفاظ إلى اللغات القديمة من أجل إثارة الشبهات حولها .

إن الهدف ليس هو تطوير العامية حتى تقترب من الفصحى ولكن العكس ، فأصحاب هذه الدعوة المريبة يطمعون فى تحطيم القوانين

والأصول التى صانت اللغة خلال خمسة عشر قرناً أو يزيد ، فإذا أمكن التحلل من هذه القوانين والأصول التى صانت لغتنا خلال هذه القرون المتطاولة كان من نتيجة ذلك تبلبل الألسنة وتوسيع رقعة الاختلاف بين الأقطار العربية حتى تصبح عربية الغد شيئاً يختلف كل الاختلاف عن عربية القرن الأول أو عربية اليوم وتصبح قراءة القرآن الكريم والتراث العربى كله أمراً متعذراً على غير المتخصصين من دارسى الآثار ومفسرى الطلاسم .

ذلك أن النفوذ الأجنبى يرى أن القضاء على اللغة العربية الفصحى هو قضاء على أكبر مقومات الوحدة الإسلامية والتضامن العربى وهو جرى وراء حكم تصير فيه الفصحى إلى ما صارت إليه لغات الغرب ، وأن تصبح اللهجات المحلية فى أقطار العالم الإسلامى لغات مستقلة لها أدبها وثقافتها .

وقد أكدت خطط كثيرة هذه الغاية التى تتمثل فى محاولات النفوذ الأجنبى مقاومة نمو اللغة العربية والتمكين لها .

بدأ ذلك منذ اليوم الأول لوصول الاستعمار البريطانى إلى مصر حيث أشار اللورد دوفرين فى تقريره إلى هذا المعنى حيث قال :

إن أمل التقدم ضعيف ما دام العامة تتكلم اللغة الفصيحة العربية : لغة القرآن فى الوقت الحاضر ولا تتكلم اللغة العربية الدارجة لأن نسبة اللغة المصرية الدارجة إلى لغة القرآن كنسبة الإيطالي إلى اللاتيني واليونانى الحديث إلى اللاتينى واليونانى القديم وعربية الكلام لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها فإذا لم تؤخذ هذه الاحتياطات يستمر الجيل الجديد مثل سابقة غير صالح لخدمة وطنة وتظل عبارة مصر القديمة كما

كانت إسماً بلا مسمى (١٨٨٣) .

وواضح من عبارات التقرير الهدف والغاية التى حمل لواءها المهندس ولكوكس حين دعا إلى الكتابة بالعامية ووصفها بأنها مصدر القدرة على الاختراع وسايره وليمور وغيره حتى حمل اللواء لطفى السيد وقاسم أمين ثم سلامة موسى ولويس عوض والكتاب المارون فى الشام .

وقد ظلت الحملة على اللغة العربية تحمل روح التعصب والغرض والهوى ، وتخفى في أعماقها الحملة على القرآن الكريم ومحاولة عزله عن البيان العربى .

وقد جرت محاولات الهدم طرائق قدداً :

- فقد دعا البعض إلى إصلاح قواعدها .
- ودعا البعض إلى التحول عنها إلى العامية .
- ودعا البعض إلى التحول عنها إلى الحروف اللاتينية .
- ودعا البعض إلى تمصير اللغة ، وأن تتخذ كل أمة لهجتها لغة لها .
- ودعا البعض إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة بل أن البعض كتب بها فعلا بعض القصص والأشعار .

وفشلت كل هذه المحاولات وانهارت واحدة بعد أخرى ، ذلك لأن اللغة العربية كانت من القوة والصمود بحيث عجزت كل هذه المؤامرات عن النيل منها : ذلك أن القرآن الكريم هو الذى حفظها على قيد الحياة هذه القرون وسيحفظها على كر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة فى العالم اليوم كما ماتت لغات حية كثيرة فى سالف العصور إلا العربية فستبقى بمنجاة

من الموت ، وستبقى حية فى كل زمان مخالفة للقوانين التى وضعوها لقيام اللغات وتطويرها ويرجع ذلك إلى اتصالها بالمعجزة القرآنية الأبدية ، فالقرآن هو الحصن الحصين الذى تحيا به اللغة العربية وتقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المادية ووسائلها الهدامة .

● وقد صور هذا المعنى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى رده على (جبران خليل جبران) الذى ادعى دعوته الباطلة تحت عنوان (لكم لغتكم ولى لغتى) فقال : إن هذه العربية : لغة دين قائم على أصل خالد هو القرآن الكريم وقد أجمع الأولون والآخرون على إعجازه بفصاحته إلا من لم يحفل به من زنديق يتجاهل وجاهل يتزندق ، فإذا كان المعجز فى لغة من اللغات بإجماع علمائها وأدبائها هو من قديمها فهل يكون الجديد فيها كمالاً أو نقصاً ؟ ، ثم أن فصاحة القرآن يجب أن تبقى مفهومة ولا يدنو الفهم منها إلا بالمران والمزاولة ودرس أساليب الفصحى والاحتذاء عليها وأحكام اللغة والبصر بدقائقها وفنون بلاغتها والحرص على سلامة الفروق فيها ، وكل هذا مما يجعل الترخص فى هذه اللغة وأساليبها ضرباً من الفساد والجهل فلا تزال اللغة كلها مذهباً قديماً وإنما يكون المذهب الجديد فيها رجلاً إلى حين ثم يدخل مذهبه معه القبر ، وما عسى يصنع كاتب وعشرة ومائة وألف فى لغة ينبض على كتابها المعجز أربعمائة مليون قلب (الآن ألف مليون قلب) وكم من أسلوب ركيك أو ضعيف أو عامى ظهر فى هذه اللغة منذ دونوا وكتبوا وكم من فكر فاسد أو زائغ أو مدخول وكم من كتاب كان يصلح أن يسمى بلغة اليوم مذهباً جديداً فأين كل ذلك وأين أثره فى اللغة وأساليبها بعد ثلاثة عشر قرناً .

لقد ابتلعته ثلاثة عشر موجة فانحدر إلى أعماق الموت الطامى وإذا أنت لم تجد فى كل علماء المتقدمين من يستطيع أن يقول أنه صاحب

مذهب جديد فى اللغة والأدب أو يهيىء لنفسه رأياً فيها إلا أنه يعمل لحفظها ونمائها ورونقها ، فأنكره واحد من أهل سنة ١٩٢٣ من يقول فى هذه اللغة بعينها :

(لك مذهبك ولى مذهبى ولك لغتك ولى لغتى) .

فمتى كنت يا فتى صاحب اللغة وواضعها ومنزل أصولها ومخرج فروعها وضابط قواعدها ومطلق شواذها ؟ ومن سلم لك بهذا حتى يسلم لك حق التصرف (كما يتصرف المالك فى ملكه) وحتى يكون لك من هذا حق الإيجاد (ما تسميه أنت مذهبك ولغتك) ؟ لا ، هون عليك أن تولد ولادة جديدة فيكون لك عمر جديد تبتدى فيه الأدب على حقه من قوة التحصيل وتستأنف دراسة اللغة بما يجعلك شيئا فيها من أن تولد عمراً واحداً فى عصر واحد بين ملايين من الأعمار فى عصور متطاولة وأن ما تحدثه على خطأ لا يبقى على أنه صواب ولا يبقى أبداً إلا كما تبقى العلة على أنها علة فلا يقاس عليها أمر صحيح .

وهكذا أكد الرافعى أرتباط العربية بالقرآن وهو أمر أساسى وأصيل عرف منذ أعلن الإمام الشافعى : إن اللغة معادلة للعقيدة من جهة إعجاز القرآن الذى هو مناظر العقيدة والبرهان على صدق مبلغها ومن جهة الاستنباط لأحكام الشريعة على أساس قضية اللغة التى نزل بها القرآن ومن جهة تصحيح العقيدة فى المسائل المشتبهة حيث يقرر الإمام الشافعى :

« إن العروبة تكسب باللسان فحسب ، وإن المرء باللغة وحدها يصير عربياً وبها صار غيرهم - أى العرب - من عشير أهله - أى اللسان العربى - إذن هى رابطة النسب بين العرب والأخر متى تجمع بينهم وإن لم

يكن من قريش أو من غيرها من قبائل العرب المشهورة فمن أهمل العربية من العرب أو أنتقل إلى لغة سواها ضاع نسبة بين العرب وإن كان يمت بصلة القربى إلى عدنان او قحطان ولا يجوز أن يكون أهل لسان النبى أتباعا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد بل كل لسان تابع للسانه وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه .

العرب أهل الفضل لأن لغتهم لغة النبى الذى بعث رحمة للعالمين فلا يجوز أن يكونوا أتباعا للسان غير لسان رسولهم وهذا يعني أن العرب أهل هذه اللغة أفضل الشعوب .

وعلى كل من ليس عربياً من المسلمين أن يتعلم اللغة العربية ما بلغ جهده حتى يشهد بها أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ويتلو بها كتاب الله وينطق بالذكر وما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك » .

وقد حرص الإمام الشافعى على أن تكون اللغة العربية لغة جميع المسلمين لأنها لغة كتابهم ولسان رسولهم لهذا طلب من كل مسلم غير عربى أن يتعلم هذه اللغة وأن يتخذها أداة للعبادة ووسيلة للتخاطب وأن يبذل أقصى جهده وطاقته فى ذلك .

فالإسلام هو الذى حول الفينيقيين والبربريين والفراعنة إلى عرب وهو الذى بدل لغتهم وغير عاداتهم وجعلهم أمة واحدة فالعروبة عند الإمام الشافعى لا تنفصل عن الإسلام والعرب كذلك لم يكن لهم فضل إلا بهذا الدين فهم بناته وحماته ويجب أن يظلوا أبداً .

والحق أن اللغة العربية لم تلبث بفضل القرآن إلا قليلاً حتى غلبت على اللغات السريانية والقبطية وغيرهما واضطرت أهل هذه اللغات من

أصحاب الأديان الأخرى أن يغيروا لغة الصلوات والعبادة إلى العربية ويتحدث عن هذا أحد الباحثين (الهلال م ٢٧) فيقول : لقد أصاب اللغة القبطية ما أصاب اللغات القديمة التى تألقت أنوارها فى غابر الأزمان فنمت وزهت حيناً ثم تضاءل ضوءها وانطفأ سراجها فإن العرب لما فتحوا مصر تحت قيادة عمرو بن العاص وجدوا أن اليونانية قد أصابت القبطية بجرح بالغ فسلطوا عليها لغتهم وهى فى عزتها وتمام نموها. فلم تلبث أن أجهزت على الجريح حتى مات وقد اضطر الأقباط إلى دراسة العربية إما لطاوعه الولاة أو لرغبتهم فى معاملة العرب ومتاجرتهم أو طمعاً فى مشاركتهم بأعمال الدواوين ، والمراتب العليا التى تحصلوا عيها بعد ذلك ، ولعل كثيراً منهم أسرعوا إلى تعلم العربية بغضاً للدولة البيزنطية الحاكمة عليهم سابقاً بصلف وتجبر فما مرت برهة من الزمن حتى شاعت العربية بين خاصة المصرين وعامتهم .

والحق أن اللغة العربية سادت واكتسحت لأنها تملك كل عوامل القوة والقدرة على العطاء وقد ثبت كذب دعاوى المستشرقين وأتباعهم التى وجهوها إلى اللغة العربية : لغة القرآن واعترف عشرات من أعلام الغرب الذين درسوا اللغة العربية بعظمة هذه اللغة وكمالها وقدرتها القادرة على تقبل كل تطور والاستجابة لحاجة كل عصر وقد كانت تجربتها مع الترجمات فى العصر العباسى حافلة فقد استطاعت أن تستقبل عشرات بل مئات من المصطلحات وتعربها دون أن يعجزها ذلك واستوعبت كتب الطب والحكمة والحيوان والنبات والكيمياء والجبر والرياضيات والفلك مما لا يقع تحت حصر في اقتدار عجيب .

يقول كامل كيلانى ، إنه ما من فن أو علم أو معنى يتحدث فيه الناس فى لغة من اللغات أو أدب من الآداب إلا له ضريب فى اللغة العربية

وقد جمعت من هذه المعانى المشتركة (١٨٠٠ صورة) إنها أبرع عملة فكرية فى الغرب بشهادة النقاد وقد أردت إيراد هذه المعانى وما يقابلها فى الآداب العالمية لأقنع الشباب بعظمة لغتنا وجلال أدبنا وقد أضفت إليها (٢٥ عملة فكرية) من الأدب العربى لاضريب لها فى الآداب الأوربية بكافة فنونها وألوانها

ولعل أخطر ما تكشف عنه عظمة العطاء الذى حملة القرآن الكريم إلى اللغة العربية أن القرآن الكريم هو الذى صهر كل الأجيال والعقول والقلوب في قالب واحد من التجاوب العميق مع كلام الله ومن خلال هذا التجاوب الذى لا ينقطع لحظة عبر التاريخ الإسلامى تكونت لدى المسلم العربى خاصية تلك الاستجابة اللغوية الحتمية إلى كل خطاب عربى آخر والتى ظلت تشده إلى العربية أدباً وتراثاً وفكراً وتاريخاً ، فلا غرابة أن يتجه الاستعمار الغربى إلى تدمير هذه اللغة ومحاصرة تأثيرها وتضييق نطاقها والعمل على فصل الأجيال الحديثة عن ماضيها بكل وسيلة من الوسائل .

✍

أولا : الحملة على اللغة العربية

عمد النفوذ الأجنبى بتركيز الحملة على اللغة العربية بهدف خفى هو محاربة القرآن الكريم ومنع انتشاره مع الإسلام حتى أمكن أن تتوقف اللغة العربية فى خلال أكثر من قرنين اليوم مع انتشار الإسلام وذلك بدفع هذه الأقطار إلى تبنى عاميتها أو الكتابة بالحروف اللاتينية أو تغليب لغة المحتل الأجنبى .

ويمكن أن تسمى هذه المرحلة : مرحلة سيطرة اللغات الأجنبية على اللسان العربى وهى من أخطر الغزوات الفكرية حيث حلت محل اللغة العربية فى برامج التعليم ومناهج الدراسة .

واتسع نطاق هذه الحملة حيث جرت الدعوة إلى الكتابة اللاتينية ومهاجمة الفصحى وتغليب اللهجات العامية .

كما وجهت إلى اللغة العربية الاتهامات المتعددة وأخطرها أنها لاتستطيع استيعاب المصطلحات العصرية الحديثة وهو ادعاء باطل ينقضه أنها قامت قبل ذلك بقبول كل مصطلحات العلوم المترجمة من اليونان والفارسية والهندية فى العصر العباسى وأنها استطاعت أن تدرس بها العلوم والطب فى كثير من جامعات البلاد العربية والإسلام فى العصور الحديثة ومن ذلك محاولة إخضاعها لعلم اللغة الغربى الذى نشأ من خلال دراسة اللهجات الأوربية التى انفصلت عن اللغتين الأم : اللاتينية واليونانية والتى شكلت اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية المعاصرة دون النظر إلى التميز الخاص للغة العربية بوصفها لغة القرآن الكريم .

هذا التميز الخاص ، الذى يجب تقديره فى مختلف القضايا التى

يتشابه النظر فيها مع الفكر الغربي وخاصة اللغة والتاريخ والتراث والقانون والتربية والاقتصاد وذلك لاختلاف المصادر والجذور للفكر الإسلامي عن الفكر الغربي وتباين الميراث العقدي والأخلاقي والروحي .

وفي مجال اللغة يبدو ذلك واضحاً جلياً فإن محاولة مقارنة اللغة العربية في تطورها باللغات الأوربية الحديثة التي خرجت من عباءة اللاتينية أو غيرها . وأبرز مظاهر التباين والاختلاف الذي يحول دون التشابه في الحركة والتطبيق ، هو نزول القرآن الكريم باللغة العربية مما أعطاها طابعاً من الثبات والخلود وفرض عليها بنزوله قدراً خاصاً حيث يقول (ابن فارس) : فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال وانسلخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى أخرى زادت زيادات وشرعت شرائع وشرطت شرائط فعفى الآخر الأول .

ولما كان القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الكبرى فقد حق أن تسمى الحضارة الإسلامية بحضارة الكلمة حيث يقول مندر عباسي (عندما جاء الإسلام صارت اللغة صورة لحياته فاخترقت الأزمنة بارتكازها عليه ودخلت كل ميادين الحياة تلبية لدواعي التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأدبي والعلمي الذي خلفها مفهومه الذهني) ويقول علال الفاسي (العلم ٢٤/٤/١٩٧٣) إن التضحية باللغة العربية هي تضحية بالدين الإسلامي لأن الكلمة الفرنسية تردنا مسيحيين ، كل الذي يتمسكون باللغة الفرنسية إنما يرغبون في التعامل مع الأجنبي وفي الحفاظ على مصالحه هنا ، لذا فإننا ننادي بالتعريب من أجل التحرر من سيطرة الأجنبي .

والواقع أننا مازلنا – في ضوء ما يقوله المغربيون – نستهين باللغة

ومكانتها الحقه من الكيان الذى تمثله الأمة بكامل قيمها ومن أعجب ما يقوله هؤلاء وما يقوله أهل الغرب ، ففى أوربا وفى فرنسا بالذات – كما روى مولود قاسم – يقولون أن اللغة هى الجنسية وفى ألمانيا مادة المواد والمادة العليا لأنها تتصل بهياكل الفكر بينما نرى هذا فى الغرب نرى عندنا من يقولون أنها مجرد أداة ، وأن اللغة العربية كأداة على وضعها الحالى غير طيعة وغير صالحة وغير مناسبة يريدون محوها ووضع اللاتينية أو أى لغة مكانها وهم يريدون بذلك هدم أصالتنا الإسلامية كلها .

وإذا كانت ضرورات العصر تقتضى بعض الانفتاح على الغير فللسيوطى كتاب (الرد على من أخلا الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) الذى يجعلنا نجتهد أولا فيما عندنا ثم ننظر بعد ذلك فيما عند غيرنا ، أما قلب المعادلة الحضارية أى الاقتباس أولا ثم النظر فيما عندنا – إن فعلنا – بعد ذلك فهو منهج معكوس لا تقع فيه إلا الأمم المتخبطة ، وإذا كانت ثقافة أمة من الأمم جزءاً من الثقافة العالمية فلامتلاك هذه الثقافة العالمية يجب على كل إنسان أن يعتمد أساساً على ثقافته والثقافة تشترط التربية وتتوقف عليها ونجد أن أداة هذه التربية وحاملتها وقناتها وحافظتها التى تلونها بلونها وتكيفها بطبيعتها هى اللغة ، فاللغة ليست مجرد كلمات بل هى (وعاء حضارى) ومن هنا توصف اللغة بأنها القوة الطبيعية الأولى فى الأمة إذ أن أركان شخصية أى أمة من الأمم ثلاثة (اللغة والدين والتاريخ) ولغرس حب الوطن نحن نؤمن بأن للإسلام المكانة الأولى .

ويسفه مولود قاسم القائلين بأن اللغة مجرد أداة أو وسيلة محايدة لنقل المعرفة ويقول : إن هذا كلام غير دقيق ، وإن العلاقة بين اللغة والفكر أعقد من أن تكون مجرد علاقة بين وسيلة وغاية ، فاللغة تؤثر فى الفكر

كما يؤثر الفكر فى اللغة ، وهذا يجب أن يكون فى الآداب والفنون وفى العلوم كذلك ، ولن يكون لنا (إبداع) حقيقى فى كل هذه المجالات إلا حين نبدع بلغتنا .

وفى شمال أفريقيا (وقد عبرت الجزائر فى كتابات مولود قاسم عن أبعاد المؤامرة) كانت الحرب عنيفة متصلة فى مراكش وتونس والجزائر وليبيا وقد تقدم المستشرقون فألفوا فى اللهجات البربرية وقواعدها كتباً مقرره لإحلالها محل العربية الفصحى .

وقال تقرير لجنة العمل المغربية الفرنسية الذى كشف عنه الدكتور حسين الهراوى : إن أول واجب فى سبيل تركيز النفوذ الأجنبى هو التقليل من أهمية اللغة العربية وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلية فى شمال أفريقيا والعاميات حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ويمكن التغلب على عواطفهم وكشف (كامفاير) عن أن قراءة القرآن وكتب الشريعة الإسلامية أصبحت الآن مستحيلةفى تركيا بعد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى محاولة للوصول إلى قلب القرآن نفسه والحكم عليه بأن يصبح أثراً ميتاً كأساطير الأولين التى أصبحت حشو لفائف البردى كما عبر عن ذلك الدكتور محمد محمد حسين ولكن هيهات

كذلك فإن مراكز تعليم العربية لغير العرب فى جامعات الغرب (بريطانيا وفرنسا وبرلين) قصد بها تنفير أبناء المسلمين غير العرب من تعلم العربية وترديد أقوال المستشرقين فى اتهامها بالجمود والعقم وبأنها لغة لا تصلح للحياة إلا فى مجتمع بدوى وأنها لا تساير الحياة الحضارية .

ثانيا : الدعوة إلى العامية واللهجات المحلية

ركز النفوذ الاستعمارى على العامية وحاول أن يدعى بأنها لغة : وحمل لواء هذه الدعوى سبيتا وفولارز ، وباول ، وفيلوت ولوريال وماسبيرو وكان المهندس ولكوكس فى مقدمتهم .

ونشر ولكوكس ١٩٢٦ رسالة قال فيها أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا وإيطاليا يتكلمون اللغة البونية لا العربية وزعم أن اللغة التى يتكلمها الناس من حلب إلى مراكش بما فى ذلك مالطة هى اللغة الكنعانية أو الفينيقية أو البونية وخص مصر بالبونية لأن كلمة punie تشبه كلمة fenek التى كان يطلقها قدماء المصرين على الفينيقيين ، كما زعم أن اللغة البونية التى هى أساس لغة الحديث عندنا لا صلة لها بالعربية الفصحى ، فقد دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألف عام ، وأنها انحدرت إلينا من الهكسوس الذين أقاموا فى مصر نحو خمسمائة سنة والذين انتشرت لغتهم فى أقطار عديدة حول مصر حتى بلغت مالطة وأخذ يلتمس الوسائل والشواهد لتدعيم زعمة هذا ومما قاله فى هذا السبيل :

- إن اللغة البونية سارت فى طريق انتشارها فى العصور الى تلت حكم الهكسوس فكانت لها مظاهرها فى الآثار المصرية وفى العهد المسيحى وقد لمسها بنفسه عندما ترجم الإنجيل إلى اللغة المصرية إذ وجد أن الأساليب المصرية أطوع لنقل الأنجيل من الأساليب العربية .

- إن اختفاء اللغة القبطية دليل على أن (البونية) كانت لغة الحديث وقت غزو العرب لمصر ، وأن اللغة القبطية لم تكن إلا لغة دين فحسب .

- إن اللغة المصرية هى البونية والبونية أخت العربية وليست العربية نفسها .

• إن اللغة المصرية أكثر ارتباطاً بالنموذج الأساسى للغة العبرية واللغات السامية منها باللغة العربية .

• إن اللغة المصرية - التى هى بونية الأصل - تنفرد بخصائص لا توجد فى العربية الفصحى مثل طريقة النفس المزدوج (أنا ما عملتش) فهذه الطرق لا يعرفها العرب وإنما جاءتنا من الهكسوس .

وهكذا بلغ ولكوكس الغاية فى التحايل لقطع صلة اللهجة العامية باللغة العربية وكل ما أورده دعاوى كاذبة لم يقم أى دليل عليها وكان هدف ولكوكس أن تحل العامية محل العربية الفصحى .

وقد وجد هؤلاء الدعاة فرصتهم فى مجلة المقتطف التى كان يصدرها أصحاب المقطم المارون حلفاء كرومر ، وقد جمعوا طوائف من الحكايات والأمثال المتداولة بين طبقات العمال والفلاحين ونادوا باتخاذ اللهجة التى كتبت بها هذه الآثار لغة للتدوين والتأليف ، ووضع أحدهم كتابة عن اللهجة العامية المصرية تحت اسم (لهجة القاهرة) .

وبلغ بهم التعصب والحقد أن ادعى ولكوكس بأن موت العربية الفصحى محقق كما ماتت اللاتينية وجاء هؤلاء يساهمون فى تحقيق أمل ولكوكس ولكن الرأى العام المصرى وقف أمام هذه المحاولة وقاومها .

ولكن الصحافة التى تبنت أسلوباً عامياً ، والمسلسلات والمسرحيات التى أجرت الجواب بالعامية أبقت هذه الظاهرة التى استفحلت فى ظل النفوذ الماركسى فظهر من سموا أنفسهم شعراء العامية ودعاة الأدب الشعبى .

وكان من أخطر ما أعطى العامية وجوداً اتجاه مجامع اللغة العربية

إلى دراسة اللهجات العربية وما استطار من كتابات أنيس فريحة وسعيد عقل ولويس عوض .

وقد واجههم عبد الله فكرى فى مؤتمر المستشرقين فى استوكهلم فى ٥ أيلول ١٩٨٩ حيث تصدى للرأى القائل باللغة العامية وقد جعل عنوان رسالته (نبذه فى إبطال رأى القائلين بتعويض اللغة الفصيحة باللهجة العامية فى الكتب والكتاب) كاشفاً منها عن دحض نظرية ولكوكس القائلة باختصاص اللهجة العامية بالعلوم والفنون .

وشف عن هدف الدعاة إلى العامية فى تفتيت هذه الأمة وإيجاد لغة خاصة لكل فئة من الأمة أو قطر من أقطارها تعمل على تكوين معارفهم وعلومهم وآدابهم وبالتالى لا يستطيع أى مواطن فى أى قطر أن يفهم ما ينشر فى القطر الآخر وتوجية ضربة قاصمة إلى اللغة الفصحية التى هى الركيزة الأساسية فى وحدة الأمة .

ولقد حاول النفوذ الأجنبي المبالغة فى الحديث عن ما أسماه الفجوة بين اللغة الفصحي والعامية وهى فى الحقيقة ليست بتلك الصورة التى يحاولون إظهارها ، وإن الخلاف بين عبارة الكتاب العلماء وبين عبارة العامة أمراً مازال معروفا فى كل أمة لها لغة حية ، ولما كان المنهج الوضعى يجعل من دراسة اللغة دراسة اللهجات والتركيز على الكلام المنطوق دون المكتوب فإن الهدف هنا هو صرف الأنظار عن علاقة اللغة بالدين فى سبيل إحياء التوميت الحديثة فى الغرب وإذا كان الأوربيون قد فرقوا بين اللغة الدينية المستعملةُ فى النصوص المقدسة وبين اللغة التى يتكلمها الناس فى حياتهم اليومية فإن الفصحى ليست اللغة اللاهوتية (لغة العبادة فحسب) ولكنها تجمع بين الفرضين .

ولقد كشف الأمير مصطفى الشهابى عن فساد وجهة دراسة اللهجات العامية وقال إنها تعد بالعشرات بل بالمئات وكلها لا ضابط لها من نطق أو حرف أو نحو أو اشتقاق أو تحديد لمعنى الألفاظ فهى كلام العامة المستعمل فى الأغراض المعاشية وفى علاقات الناس بعضهم ببعض وهذا الكلام وقتى ولا يثبت على مرور الأيام وموضعى لا يتحول من قطر إلى قطر عربى آخر ، ومعناه أن اللهجات العامية لا يمكن أن تكون لغات علم وأدب وثقافة وليس فى مقدورها أن تعيش طويلاً وأن يعم بعضها أو كلها الأقطار العربية كافة وكل ما يكتب بلهجة عامية يظل محصوراً فى قطره وقلما يفهمه غير أبناء ذلك القطر فإذا تدارسنا خصائص هذه اللهجات ووضعنا لكل منها قواعد رجراجة فماذا تكون مغبة هذا العمل ؟ إن أخشى ما نخشاه أن يستهوى هذا الموضوع معالجة تنظيم الكتابة والتأليف باللهجات المختلفة وعلى طبع هذه الرطانات ونشرها فتكون النتيجة تشويشاً وضرراً وتباعد بعض الأقطار عن بعض بدلاً من أن تتوحد بلغتها ، أى تكون النتيجة مخالفة لما يتوقع من تدريس اللهجات العامية فى خدمة الفصحى .

أما القول بأن تدريس هذه اللهجات يفضى إلى معرفة مشكلات الفصحى ، إلى مداوة أدوائها فهو قول ضعيف فى نظرنا فأدواء الفصحى معروفة تحتاج إلى من يعالجها بإخلاص ونشاط وصبر ومثابرة وأهمها وضع المصطلحات العلمية أو تحقيقها وتبسيط قواعد الكتابة والإعراب والصرف والنحو وتبسيط الكثير من تعليلات القواعد الصرفية والنحوية .

وجميع هذه الأمور يعرفها علماؤنا الأثبات ولا علاقة لها باللهجات العامة وقواعدها وتدريسها ومن الطبيعى كما فعل الشيخ أحمد رضا

العاملى وعلماء أثبات وفقهاء باللغة ممن يعرفون كيف يقربون العامية من الفصحى ويمنعون طغيان العامية عليها .

إن قضية الفصحى والعامية لا تحل بدراسة اللهجات العامية وتدريسها للطلاب بل تحل بتيسير قواعد الفصحى مع الاحتفاظ بسلامتها ومنع طبع رسائل بالعامية أو التكلم بها فى المدارس والمسارح ومحطات الإذاعة ودوائر الحكومات .

✍

ثالثاً : سيطرة اللغات الأجنبية

لم يتوقف النفوذ الأجنبى عند إذاعة العاميات والدعوة إليها بل تقدم خطوة أخرى بفرض لغته على البلاد العربية (سواء اللغة الإنجليزية فى المناطق التى وقعت تحت الإحتلال البريطانى واللغة الفرنسية فى المناطق التى وقعت تحت الاحتلال الفرنسى .

وفى كثير من الأقطار العربية فرض النفوذ الأجنبى لغته فى تدريس مختلف العلوم وقد أدت هذه المطارده من اللغتين الفرنسية والإنجليزية للغة العربية ، إن تتخلف عن ركاب الإسلام وكان من الضرورى حسب سنة التطور أن تسير العربية فى ركاب الإسلام أينما حل ، ولكن النفوذ الأجنبى خلال أكثر من قرنين من الزمان استطاع أن يوقف توسعات اللغة العربية فى البلاد التى انتشر فيها الإسلام وخاصة فى أفريقيا وجنوب شرق أسيا .

بل أنه عمد إلى لغاتها التى كانت تكتب بالحروف العربية فغيرها كما فعل فى الهوسا والسواحلية فى أفريقيا وفى اللغات الأندونيسية والماليزية وغيرها ومن ثم فقد أحس المسلمون ولا يزالون بنقص كبير من حيث أنهم يتعلمون الإسلام دون أن يتيسر لهم من اللغة العربية – لغة القرآن والحديث الشريف – ما يعينهم على تلقى عقيدتهم من مصادرها الصحيحة .

كذلك فقد حرص النفوذ الأجنبى حين زحف على أفريقيا زحفه المشهور فى أواخر القرن التاسع عشر على أن يصفى الوجود القائم للغة العربية وآدابها وتراثها ومخطوطاتها فى هذه المناطق وأن يسحب من البلاد كل أثار اللغة العربية والتراث العربى ، واستطاع النفوذ الأجنبى أن

يمتص بعض من يتسمون بأسماء عربية ليحملوا لواء دعوتهم ويتصدروا بها الصحف والمحافل وكان هذا التراجع فى اللغة العربية كسبا للغات الأوربية وفى مقدمتها اللغة الإنجليزية التى توسعت فى هذه الفترة على حساب العربية ، ومحاولة الادعاء بأنها لغة عالمية ، وإن تجاهلت أن اللغة العالمية يجب أن ترتبط بالمشاعر والثقافة وليس بالقسر والنفوذ الاستعمارى الكرية .

كذلك فقد أثر توسع اللغة الإنجليزية على اللغات القومية فى أفريقيا كاللغة السواحلية وغيرها وهو توسع مؤقت فرضته ظروف معينة ولكن المستقبل للغة العربية وحدها فى أفريقيا وآسيا .

ولا ريب أن إيقاف اللغة العربية إنما جاء عن طريق القسر والتحدى وبفعل عوامل غير طبيعية أقامت السدود أمام نمو اللغة العربية وسيرها في موكب الإسلام وخاصة فى المناطق التى يتسع فيها نطاقه .

ولولا هذه المحاولات التى تقودها قوى التبشير العالمية والتى تفرض نفسها على مناهج التعلم فى تلك البلاد لما استطاعت اللغات الأجنبية واللهجات المحلية أن تحول بين العربية الفصحى وبين مسايره الإسلام لأنها هى اللغة التى تحمل أشرف رسالة : القرآن الكريم دستور الإسلام ومنهجه الاجتماعى والفكرى ، واليوم وفى كثير من البلاد التى تحررت من نفوذ الاستعمار لا يزال النفوذ الأجنبى يزين لاهلها الالتجاء إلى المدارس التى تدرس برامجها باللغات الأجنبية فضلاً عن المدارس الحديثة التى يسمونها مدارس اللغات .

وكذلك الأمر فى معاهد الألسن التى لا تقوم برامجها على اعتبار اللغة العربية هى الأساس وإن كل اللغات التى يتعلمها العربى والمسلم هى

خادمة الفكر الإسلامى ، وإنما تقوم معاهد الألسن على فلسفة مغرقة فى التبعية والولاء الأجنبى ويطمع المشتركون فيها أن تحتضنهم الدول الأجنبية فى مناصب وأوضاع متميزة يخدمون فيها خصوم أمتهم .

يقول مالك بن نبى : إن استعمال اللغة الأجنبية فى تدريس العلوم بوجه خاص فى البلاد العربية هو نفسه علامة الفشل فى استيعاب تلك العلوم وجعلها خارج نطاق حياتنا الفكرية بحيث تبقى الصلة بينها وبيننا صلة سطحية لا نغير فيها نحن شيئا ، ولا تغير هى فينا شيئا بينما نرى فى المجتمعات الحية أن هذه الصلة تتغير يومياً وتجعل الفرد يهيمن أكثر وأكثر لاعلى هضم العلوم فحسب ولكن على تقدمها والسير بها قدما .

مثل إسرائيل التى أعادت لغة ميتة منذ ثلاثة آلاف سنة وأعادت لها هيمنتها على استيعاب كل العلوم والفنون والسير بها إلى الأمام وكما يحدث فى اليابان والصين وكما حدث فى حظيرة الحضارة الإسلامية عند بزوغها فإنها لم تلبث قليلاً إلا وقد استوعبت فى اللغة العربية ، الفصحى ، لغة قحطان كل العلوم اليونانية بكل فروعها من هندسة وطب وفلسفة .

ولكن ليس معنى هذا أن نعرض عن اللغات الأجنبية أن ندرسها لتكون خادمة للفكر الإسلامى وليس مسيطرة عليه أو كما قال بعض المتخصصين : الاستئناس اللغوى ، بمعنى أن تقف اللغات الأجنبية عند حد الاستئناس اللغوى لا أكثر ولا أقل حيث لا يحدث فى بناء الطفل انفصام نتيجة تداخل النماذج بين أبطال أرضه وأبطال الآخرين ، أو بين عباقرة حضارته وحضارة الآخرين فيلغى كل منهما الآخر وينتج طفلاً بلا انتماء فاللغة العربية هى مصدر الانتماء للعقيدة والأرض والوفاء للتاريخ .

ويجب أن تكون وسيلة لبناء الطفل المسلم مع عدم اقتحام أى تداخلات ثقافية له فى سن الثامنة عشرة .

ذلك إيمانا بأن فى ديننا وشريعتنا ما يغنينا عن استيراد مناهج بديلة ، وهى العقيدة التى يجب أن تكون قائمة على الحال التى علمنا إياها رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة وهناك أمور تتغير بتغير الزمان والمكان .

والتعامل مع حضارة الغرب إنما يكون فى جانب العلوم التجريبية وحدها وقد جرى تناول هذا الأمر فى عديد من المؤتمرات الإسلامية العالمية وتقرر ضرورة تعلم اللغات الأجنبية للمسلم فى إطار اللغة الأم حتى لا تعطى اللغة الجديدة ولاءً معارضاً للولاء الأصيل ، فقد حرص النفوذ الأجنبى على أن ينقل فكرة عن طريق لغته وأن يخلق لها ولاءً فى نفوس وعقول أبناء الأمة الواقعة تحت سيطرته أو فى دائرة نفوذه كما هو الآن .

إن الفصحى هى مفتاح فهم الإسلام والإحاطه به وبدونها لا تتحقق معالمه ويجهل الناس حقائقه وتعاليمه وهذا هو سر الحملة عليها ومن هنا يجب أن تكون اللغة العربية الفصحى هى اللغة الثانية فى مختلف الأقطار الإسلامية بوصفها حاملة الفكر والعقيدة والثقافة الحقيقية للشعوب الإسلامية قاطبه وليس للعرب وحدهم .

وأخطر ما فى هذه المحاولة : محاولة تطبيق مناهج اللغات الأوربية على اللغة العربية ومحاولة فرض الواقع اللغوى على أساس أن اللغة تتطور بطبيعتها والصواب أن نبحث عن أسرار اللغة ولا أشك أن هذه المحاولة فى دراسة اللهجات والعامية تمثل خطر كبيراً على اللغة العربية : لغة القرآن .

ونحن – المسلمين – يجب أن نتحفظ تجاه أى نظرية كانت فهى نظريات استخرجت من لغات غير العربية ، فالعربية بوصفها الخاص

المتميز من حيث أنها لغة القرآن الذى حماها أربعة عشرقرناً والذى يجب أن تحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يحتاج إلى نظرية خاصة بها إذ أن القاعدة الأساسية أنه لابد من المحافظة على اللغة العربية حفاظاً على فهم القرآن نفسه ، ونحن لا نقبل الواقع الذى تدنت إليه الفصحى إلا لإصلاحه والتدخل فيه ولكنا لا نقبل الواقع بصفة عامة وهذا هو الفرق بينها وبين غيرها .

ومن هذه النظريات ما يسمى (علم الأصوات) ونحن يجب أن يكون لنا موقف إزاء نظريات علم الأصوات الحديث فلا نأخذها قضية مسلماً بها فإن العلوم الإنسانية الغربية والوافده تختلف اختلافاً واسعاً ، وبين اللغة العربية واللغات الغربية اختلاف عميق يجعلنا نطالب بنظرية نتمثل فيها خاصية اللغة العربية من حيث اتصالها بالقرآن الكريم وخلودها واستمرارها الآن وإلى ما بعد الآن .

رابعاً : الهجوم على الحروف العربية

وهناك الحملة المثارة على الحروف العربية بينما يثبت بالبحث المدقق أن هذه الحروف هى أصلح حروف الأبجديات قاطبة لكتابة الألفاظ ومن أكثرها دقة فى ضبط الأصوات وقد استطاعت أن تؤدى من أنواع الكتابة ما لم تستطع أى أبجدية أخرى أن تؤديه ، فقد استطاعت الحروف العربية أن تكتب هذه اللغات جميعاً دون تعديل أو تغيير أو إضافة فى أشكالها ولقد انخدع الذين دعوا إلى الكتابة بالحروف اللاتينية بما حدث فى تركيا غير مقدرين الفارق بين اللغتين وكذلك لم يلتفتوا إلى اختلاف العربية عن اللاتينية وما تفرعت إليه من لغات وقد فاتهم أن اللغة العربية تعبر عن فكرة وثقافة ممتدة لأمة واحدة في تاريخها البعيد إلى حاضرها المشرق ، ومازال مفعمة بالحياة والقوة وأن تطورها وتفاعلها لم يتوقف وهي لغة أمة واحدة ارتبطت بالتاريخ والعواطف والفكر والثقافة العربية الإسلامية ، أما اللغة اللاتينية فلم تكن لغة الغرب كله ولم تستطع التغلب على اليونانية وقد ارتبطت اليونانية بحضارة أهلها وهي أرقى من حضارة الرومان فضلاً عن أن اللاتينية كانت لغة أرستقراطية لايمارسها ولايحسنها إلا النخبة الممتازة ولم تتغلغل في حياة العامة .

ولقد تبين أن الادعاء الغربي الذي أصر الاستشراق والتبشير على أن يردده على مسامعنا على مدى مائه وخمسين عاماً بأن الحروف العربية ليس لها أساس علمي ، وأن النظام المستعمل لايمكن أن يكون نظاماً لعلوم التقنية والعلوم الفنية ، هذا ادعاء باطل من أساسه وهذه النظرية لاتثبت أمام الحقيقة الجلية .

« إن العرب أوجدوا هذا النظام قبل عصر النهضة بأكثر من

خمسمائه عام ، إن القلم في هذا الوقت من حيث الحجم - كان قلم الكتاب في حكم الخليل الذي هو أكبر حجماً ، كان يقاس به ٢٤ شعرة من شعر الخيل ، قلم الثلثين كان يقاس به ١٦ شعرة ، قلم الثلث كان يقاس به ١٢ شعرة وقلم الثلث الذي هو ثلث المقدار يقاس به ٨ شعرات ، كل قلم من هذا المعيار يقابله قطع من الورق يكتب فيه - هذا النظام نظام منطقي ومتجانس وينتمي إلى عضوية التفكير ، إلى وحدة واحدة في التفكير .

هذا ما أورده الدكتور أحمد مصطفى المتخصص في دراسة حروف اللغة العربية ، يقول : كلنا يعلم أن المصاحف التي كتبت قبل القرن الثالث كانت مكتوبة بالكوفية . والمصاحف المبكرة كانت غير معجمة - أي منقطة - فكانت النتيجة حصول التباس في القراءة وتحصل أخطاء كثيرة جداً ومن هنا كان عمل (ابن مقلة) إيجاد أسلوب يوضح به الخط ويجعله واضحاً جلياً بل أن النظرية أفصحت عن :

(١) كيفية بناء الحرف .

(٢) وعن قدر القلم وعلاقته بقطع الورق الذي تكتب به ، بمعنى أن النظام الغربي الذي يستعمل الآن (إمبريال سايز) قطع الورق الكبير - وبعد ذلك حجم النصف وحجم الثلث ، هذا النظام نفسه كان نظاماً عربياً في القرن الثالث الهجري ثم جاء (ابن البواب) وكان خطاطاً عبقرياً فناناً جاء بعد مائه عام من (ابن مقلة) في القران الرابع الهجري ووضع مخطوطته في هذا الصدد الذي نقل لنا صور الحروف وأشكالها وماتولد منها من حروف أخرى ، وتسمى رسالة (ابن مقلة) : رسالة في علم الخط والقلم : هذه التي حققها الدكتور أحمد مصطفى ووضع عنها أطروحته » .

وقد ثبت أن الحروف العربية هي أصلح الأبجديات قاطبة لكتابة

الألفاظ ومن أكثرها دقة في ضبط الأصوات وقد استطاعت أن تؤدي من أنواع الكتابة مالم تستطع أي أبجدية أخرى أن تؤديه وقد استطاعت الحروف العربية أن تكتب بهذه اللغات جميعاً دون تعديل أو تغيير أو إضافة في أشكالها الأساسية .

كانت دعوة المستشرقين إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية خديعة كبرى انخدع بها بعض العصريين والعلمانين أولاً في تركيا غير مقدرين الفارق بين اللغتين فالتركية من الأسرة الفولانية ولم تكن ذات حضارة أصلية قديمة ولم تسهم يوماً في الثقافة الإنسانية على الصعيد الفعلي وقد بلغ من ضعفها أنها وهي القوية المستعمرة الغازية للغة العربية في دارها استعارت أبجديتها ومعظم ألفاظها لتشكل مظهرها ودلالتها .

هذه الخديعة التي مثلت العربية الفصحى باللاتينية والعامية المحلية للبلاد العربية بلغات أوربا التي تفرعت عن اللاتينية فاتها أن اللغة العربية تعبر عن فكرة وثقافة ممتدة لأمة واحدة في تاريخها البعيد إلى حاضرها المشرق ، ماتزال مفعمة بالحياة والقوة في تطورها وتفاعلها لم تتوقف وهي لغة أمة واحدة ارتبطت بالتاريخ والعواطف والفكر والمصير أوثق رباط وفوق ذلك فهي لغة القرآن الكريم أساس الحضارة والفكر والثقافة العربية الإسلامية أو كما يقول الدكتور عبد الكريم جرمانوس : إن اللغة العربية تمثل سنداً هاماً أبقى على روعتها وخلودها هو الإسلام فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة على نقيض ماحدث للغات القديمة المماثلة ، التي انزوت تماماً بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

إن أصحاب النفوذ الغربي ينظرون بعين الرضا إلى الحروف

اللاتينية ، وبعين السخط إلى الحروف العربية ، وقد بهرت أبصارهم من نبات الدول الأوربية ، فرأوا في كل مستورد منها كمالا حسبوه طريقاً إلى المدنية وتوهموا أن الحروف اللاتينية أكمل في الأداء اللغوي وأدق في ضبط الألفاظ من الحروف العربية .

ومن أجل ذلك - كما يقول الدكتور على الحديدي الذي اعتمدنا على بحثه المستفيض في هذه النقطة - منعوا الاتصال الثقافي المباشر بين المسلمين ليظلوا غرباء في التفكير ونفروا غير العربي من تعلم اللغة العربية حين اتبعوا في معاهدهم طريقة عقيمة هي طريقة الترجمة ومطالبة المتعلم بحفظ مفردات من اللغة منعزلة في جملتها وفي معانيها بلغته الأصلية ثم التدريب على طريق الترجمة ، وكذلك واجهت مدارس الاستشراق في أوربا المتعلم المبتدئ بفقرات من أدب عصور الضعف ليظهروا اللغة العربية بمظهر اللغة التي لاتصلح إلا للصحراء ، والفقيرة من التصور والعاطفة وحسن التعبير وقد انتدبوا أبناء زعماء المسلمين الأفريقيين إلى عواصمهم ليغرقوهم في حياة اللهو والليل والمتعة فتتحلل عزائمهم ويضعف إيمانهم بوطنهم ودينهم وتتقبل عقولهم ما يبثونه فيها من سموم التشكيك والاضطراب في مفاهيم الوطنية والدين فتضيع قدسيته من نفوسهم ولايبقى في أذهانهم التي مرضت سوى عقائد ممسوخة وصور من الوطنية مهزوزة ثم يعودون إلى بلادهم بقليل من الألفاظ العربية التي تعلموها وكثير من الشك وعدم الإيمان في كل مايتصل بمقدسات وطنهم وبرصيد ضخم من العواطف والتجاوب والولاء لمن تعلموا على يديه الحياة .

ففي جامعتي كمبردج واكسفورد بانجلترا والسربون بفرنسا وبرلين وليبزج بألمانيا ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن تعلم اللغة

العربية على هذه الوجهة عن طريق اللغتين الإنجليزية والفرنسية وقد قصد بذلك تنفير أبناء المسلمين غير العرب من تعلم العربية وترديد أقوال المستشرقين مما اتهموها به من الجمود والعقم وبأنها لغة لاتصلح للحياة إلا لمجتمع بدوي عفا عليه الزمن لأنها لاتساير الحياة الحضارية .

إن مايسمونه بالعقبات أو العيوب أو الصعوبات أو غيرها هي من الأوصاف التي ألصقوها باللغة العربية باعتبارها ميزات وخصائص :

●● ومن دعاواهم أن العربية تكتب وتقرأ من اليمين إلى الشمال (وهي ظاهرة تشاركها فيها اللغات السامية) .

●● عدم الحاجة إلى استعمال فعل الكينونة في الجمل الخبرية العربية (محمد كريم – محمد هو كريم – محمد يكون كريماً) مع أن إثبات فعل الكينونة هو من الميزات التي تتسم بها اللغة العربية .

●● كذلك فهم يهتمون بالاسم أكثر من اهتمامهم بالفعل ويرون اهتمام العرب بالفعل بتقديمه في الجملة الفعلية من النقائص مع أنه ليس كذلك على الإطلاق .

●● الادعاء بتعقيد النحو العربي والدعوة إلى هدمه ، دعا إلى ذلك كل خصوم اللغة العربية ودعاة العامية وفي مقدمتهم سلامة موسى الذي دعا إلى حذف الضمائر وتسكين أواخر الكلمات والواقع أن هذه الدعوة المدعاة ترمى إلى غرض بعيد ينتهى باللغة العربية بعد وقت طويل إلى التفكك ويذهب منها قدرتها على فهم وقراءة واستيعاب التراث الإسلامي الذي قام على قواعد النحو الأصلية وهي واحدة من الدعاوي التي ترمى إلى زلزلة القواعد الراسخة للقرآن الكريم قراءة وفهماً .

إن نحو العربية علم عربي أصيل انبثق بصورة أصيلة من اللغة العربية ذاتها وذلك رد على مقولة أن العرب أخذوه من الآثار اليونانية أو الهندية ويؤكد أصالة النشأة العلمية للنحو في العربية ماأورده الفارابي في كتابه إحصاء العلوم وقد اكتمل هذا العمل على أيدي الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه .

وفي هذا المجال سواء بالنسبة لدراسة اللهجات أو غيرها نقول أنه ليس من الطبيعي أن تفرض علينا النظريات الوافدة فرضاً ولايمكن لنا أن نأخذ نظريات علم الأصوات الحديث أو النحو قضايا مسلمة تطبق على العربية ، وكذلك الشأن في التعريب وإدخال اللفظ الدخيل وفي هذا يقول الدكتور منصور فهمي : لو أننا تركنا للعلماء والمخترعين من أهل الصناعة في الغرب أن يقتحموا الحواجز على لغتنا العربية لعرضناها لجحافل من الألفاظ تعمر بها ، فتصبح هذه اللغة مهلهلة خالية من جمال صنعتها العريقة ونسيجها المنسجم في القياس ولذلك ترانا أميل إلى تغليب اللفظ العربي وتسويده في القياس وإذا أحببنا لفظاً مهجوراً طغى عليه النسيان وإن دبرنا الترويج للفظ مستضعف من مادة لغتنا ومن وضع أهلها وإن استجلبنا ماتعوزه الرقة من خشن الألفاظ تجرى على لسان الضاربين من كل فج عميق ، وإذا استصلحنا بعض الألفاظ التي تحرفت في لغة العامة ورددنا لها الاعتبار وإن ركبنا لفظاً تضطرب مقاطعه في وزنها واشتقاقها العربي وإن استبعدنا سلطان الدولة على التمادي في الاستهتار باللغة في شتى صور الاستهتار وإننا نؤثر ذلك كله على الإسراف في الاستخدام للدخيل من اللغات الأخرى ، إنما نصنع ذلك استجابة لصيانة مادة اللغة العربية ولصوت العروبة الصادقة ، ومسايره لطواعيه اللغة نفسها ومانطوي لها من نفوسنا من إعزاز .

وفارق بين اللغات الأوربية وبين اللغة العربية ، هذا الفارق لايفرض علينا أن نطور لغتنا وأن نفرض عليها قوانين قاهرة من خارج نطاقها والتطور في اللغات الأوربية كان نكبه على أصحابه قطعهم أمماًبعد أن كانوا أمة واحدة ، فمازالوا في خلاف وحروب ثم أنه لم يحكم على تراثهم القديم المشترك وحده بالموت بل هو لايزال يقضي بين الحين والحين على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالموت حتى مايستطيع الانجليزي اليوم من عامة الشعب أن يفهم لغة شكسبير الذي مات في القرن السابع عشر أما نحن العرب فنحن نقرأ القرآن ونفهم رسائل الجاحظ فلا نكاد نحس فارقاً بين أسلوبه وأسلوب المعاصرين .

●● محاولات متعددة

والحق أن النفوذ الغربي بما يملكه من قدرات في مجال الطبع والنشر مايزال يواصل محاولاته في مجالات مختلفة لخنق اللغة العربية وأخطر من ذلك هو الدعوة إلى تغيير أحرف اللغة العربية المستعملة والمتداولة منذ أكثر من خمسة عشر قرناً إلى الحروف الأبجدية اللاتينية كما فعل الأتراك والمالطيين وهوهجوم مكثف على اللغة العربية باسم الإصلاح والتطوير وتتركز هذه الدعوات المسمومة حول :

● إلغاء الحروف العربية بأكملها واستبدالها بالحروف اللاتينية .

● الإبقاء على الحروف العربية مع إدخال تعديلات كإدخال التشكيل اللفظي .

● استعمال اللهجات المحلية بدلاً من الفصحى والتركيز على أن تكون اللغة العربية في مصر لغة مصرية بحتة تشتق من الألفاظ المصرية القديمة واللهجة العامية المصرية .

● حذف بعض أبواب النحو العربي والتساهل فيه وتبسيط بعض قواعده .

● محاولة تجديد مادرس من اللغات القديمة كالقبطية في مصر مثلاً إذ ظهر من يهتم بجمع الكلمات العامية التي لها أصل قبطي ودعوة المصريين إلى التماس لغتهم القديمة وقد عمد البعض إلى وصف اللهجة العامية بأنها لغة مستقلة سابقة للغة العربية ومنهم من قال أن العربية لغة أجنبية (عبد اللطيف جاسم) .

وهناك الاجتراء على الخط العربي والاستهزاء بقواعده ومحاولة تشويه هذا الخط وتجريده من أقيم صفاته وهو جماله وهناك اقتراح بطباعة لغتنا بأحرف منفصلة في حدود لاتتجاوز ٢٩ قالباً . هذا فضلاً عن أن الجمع باللينوتيب كان له أثره السئ في رسم مشق الحروف مع تجاهل أصولها وجمالها ومن ضبط أحجام البنط .

هذا بالإضافة إلى المؤامرة المدبرة للحيلولة دون تعريب العلوم ومانقوم به هيئات التدريس من المعارضة لهذا الهدف الحيوي الخطر مع ماهو معروف من أن التعليم في قصر العيني استمر سبعين سنة باللغة العربية قبل احتلال الإنجليز مصر ، ومع نجاح التجربة التي قامت بها جامعة دمشق منذ خمسين عاماً .

وإن تدريس الطب والعلوم (الهندسة والعلوم والكيمياء) باللغة الأجنبية يجعلنا عاله على هذه اللغة ويحد من النبوغ والقدرة على الاستيعاب الجيد الذي يؤهل للإبداع .

هذا مع العلم بأن اللغة هي أداة الفكر ووعاؤه وأي مفكر فإنما يفكر ويتكلم طبقاً لهندسة اللغة العربية فإنه يكون أكثر تمكناً واستيعاباً لحقائق

الكون منه لو استخدم لغة أخرى ، والدعوة إلى تعريب التعليم إنما يؤدي إلى أن تأخذ الأمة زمام المبادرة لكي تضمن للأجيال القادمة نقطة الانطلاق إلى الإبداع مع إحساس بأصالتها والشعور بأن لغة القرآن هي لغة الحياة وليست لغة أثرية أو ودعت الحياة منذ زمن بعيد بل أنها لغة متجددة وقادرة على استيعاب الحقائق (عبد الصبور شاهين) .

إن تعريب التعليم نقطة انطلاق إلى الأصالة ، وضرورة وإيمان بأن لغة القرآن هي لغة الحياة وليست لغة أثرية ، بل هي لغة متجددة وقادرة على استيعاب متغيرات العصر وحقائقه .

●● ميزات اللغة العربية

● إن اللغة العربية هي الأصل الذي نشأت منه اللغات التي عرفت باسم اللغات السامية وذلك لأن اللغة العربية القديمة كانت لغة الأعراب البدو الذين كانوا يعيشون في الجزيرة العربية وهاجروا بعد ذلك موجات متتالية إلى بعض البلاد الآسيوية والأفريقية وكان من نتاج تلك الهجرات نشأه اللغات التي تعرف باسم اللغات السامية .

● طوع علماء الإسلام اللغة العربية لمصطلحات العلوم الكونية والطبيعية والإحيائية وقد كتب بها علماء الإسلام بحوثهم في مختلف ميادين العلوم من طب وصناعة وزراعة وتجارة وكشوف من أمثال : ابن سينا وابن يونس والفارابي وابن الهيثم وجابر والخوارزمي والزهراوي .

وليس صحيحاً ماادعاه البعض من أنها صلحت أن تكون لغة أدب وشعر وفنون فحسب .

وقد عبرت العربية بالوضوح ودون لبس ، وفي صراحة دون إبهام وعرفت :

(١) بالمنطقية : التوالى الصحيح لحدوث الأشياء أو سبق الأسباب على النتائج ونسبه الفروع إلى الأصول

(٢)بالإيجاز

كما عرفت بالمعادلات الرياضية واحتوائها رموز يرمز بها عادة إلى العناصر النحاس (نح) الحديد (ح) النتروجين (ن) ، فضلاً عن القصد إلى حقيقة الأمور ووحدة المفهوم التركيبي للجملة العملية والمطابقة التامة بين المفهوم العلمي واللغة المستعملة .

- يقول المستشرق المسلم عبد الكريم جرمانوس : إن اللغة العربية سند هام أبقى من روعتها وخلودها الإسلام فلم تنل منها الأحوال المتعاقبة أو العصور المتباينة أو اللهجات المختلفة على نقيض ماحدث للغات القديمة كاللاتينية حيث انزوت تماماً في جدران المعابد وكادت تنقرض وقد دخلت اللغة العربية القواميس الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والأندونيسية بدخول الإسلام في هذه البقاع مع ماعرف من خصائصها من المرونة والسهولة والوضوح .

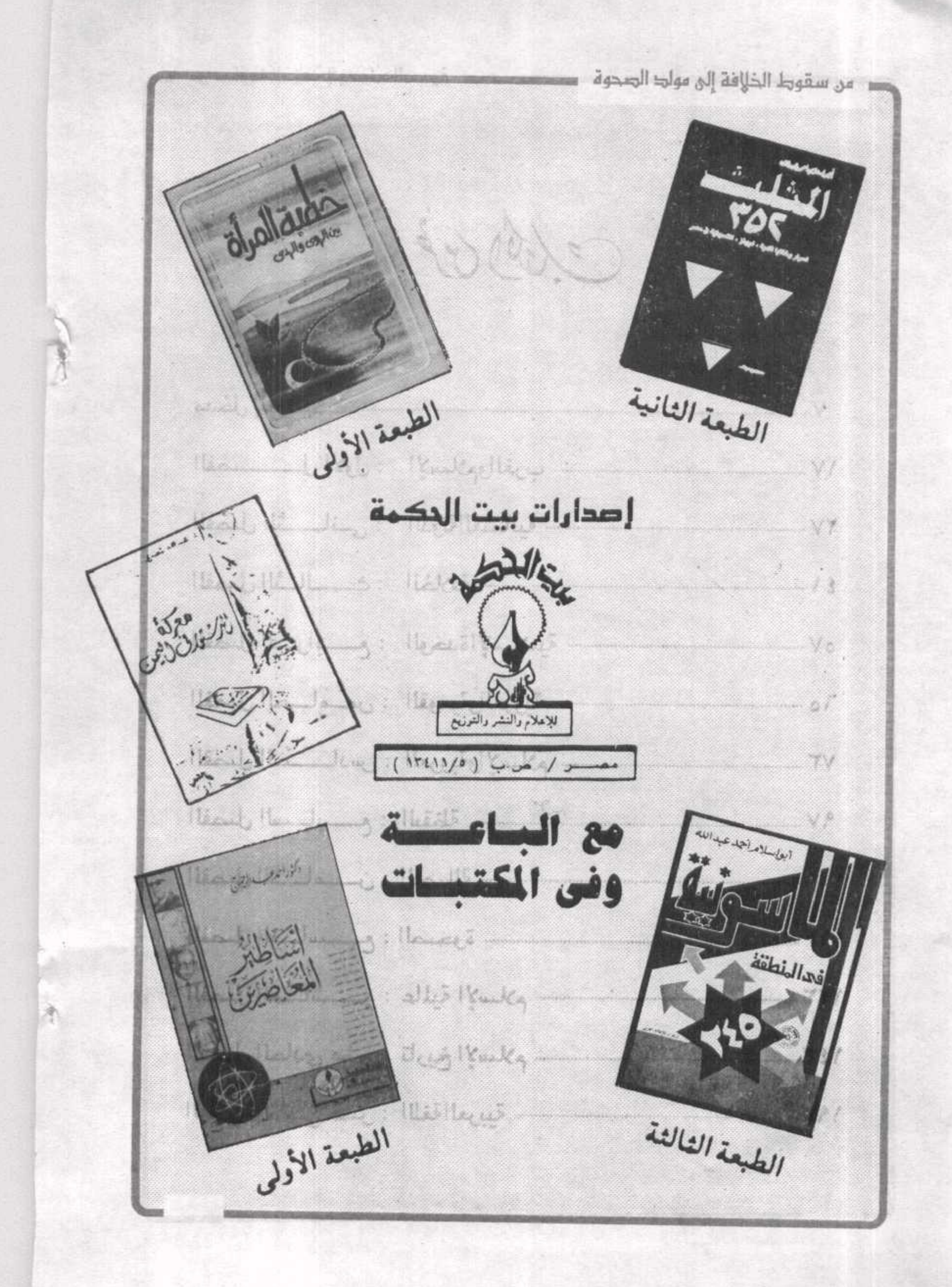
- من مميزات اللغة العربية أنها لغة اشتقاقية لأنها تتواصل كلماتها عن طريق استخدام المادة ، كما تجمع صور الاستخدام كاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة وهذه خاصية هامة تتفوق بها اللغة العربية على اللغات الأوربية التي اقتصرت مرونتها على (الإلصاق) وهي إضافة سابقة في رصيد الكلمة أو لاحقة في عجزها أو حشو داخل في وسطها . هذا الاعتماد على السوابق واللواحق تغلب على اللغات الأوربية في صوغ الكلمات وينعدم في اللغة العربية (دكتور كارم السيد غنيم) .

● على الرغم من اختلاف اللهجات العربية اختلافاً شديداً بين المشـرق والمغـرب والشـمـال والجنوب فـإن هذا لايشكل عـائقـاً في فـهم الشعوب العربية نفسها للهجات بعض عند استعمال الفصحى ، والعربية بنية جامعة مانعة تستعلى بنفسها على ماعداها وفيها من الأصول والقواعد مايحقق أداة التواصل بين الناس (دكتور ساعي) .

هذا وبالله التوفيق

✍

فهرس الكتاب


الطبعة الثانية
الطبعة الأولى
إصدارات بيت الحكمة
بيت الحكمة
للإعلام والنشر والتوزيع
مصر / ص.ب (١٣٤١١/٥)
مع الباعة
وفى المكتبات
الماسونية
فى المنطقة
٢٤٥
أساطير المعاصرين
الطبعة الأولى
الطبعة الثالثة

بيت الحكمة

للإعلام والنشر والتوزيع

العنوان : ١١ ش الأزهرى - منشأة النصر - شبرا الخيمة

المراسلة : مصر / ص . ب (١٣٤١١/٥) شبرا الخيمة

ت : ٢٢٠٧١٢٤ ت : ٢٢٠٣٨٩٩